شوقي أبو خليل

آراء يهدمها الإسلام

دار الفكر

Bibliotheca Alexandrina
00994331

بسم الله الرحمن الرحيم

آراء يهدمها الإسلام

شوقي أبو خليل

آراء يهدمها الإسلام

دار الفكر

الكتاب ٧٢٤
الطبعة الخامسة ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م
ط١ ١٣٩٧ هـ = ١٩٧٧ م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير، كما يمنع الاقتباس منه، والترجمة إلى لغة أخرى، إلا بإذن خطي من
دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Tx FKR 411745 Sy

تصدير الطبعة الجديدة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

[الرعد ٢٠]

بسم الله ، والصلاة والسّلام على رسول الله ، وبعد ...

في الوقت الذي كانت فيه الغارات البربريّة تجتاح أوربة ، وتجعل منها مسرحاً للقلق والخوف والفوضى والدمار ..

وفي الوقت الذي كانت فيه أمريكة وأُوقيانوسية في عالم المجهول .. كانت الجزيرة العربية تَمُور بالحياة ، وقد بدأت رحلة رائعة ممتعة من الفُرْقَةِ إلى الوحدة ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الانطواء على نفسها إلى الفتوح ونشر الإخاء والإنسانية في أبهى معانيها .

وكانت الجزيرة العربية تتفتّح عن إمكانات كبرى ، وقيم روحية رائعة ، نهل منها العرب مُثُلهم العليا ، فأُشْرِبَت نفوسهم إيماناً بالله راسخاً ، لم يقف عند حدود الجزيرة العربية ، بل امتد إلى ما وراء الحدود ، وباسم هذه القيم الخالدة ، انطلق العرب ، فأعزهم الله بالإسلام ، وأعز الله الإسلام بهم ، فهم حماته وجنوده وشهداؤه الأُوَل .

لقد كانت وحدة العرب وانتصاراتهم وأمجادهم .. ثمرة طيبة من ثمار الإسلام .

كما أن العرب الأُوَل صدقوا في عروبتهم لما تفانوا في خدمة الإسلام ، فأعز الله الإسلام بهم .

جاء الإسلام إلى العرب ليوقظ عقل النائمين ، وليحيي أموات القلوب .. ليوصلهم إلى جنات السعادة ، سعادة العقل الناضج ، والفكر النَّيِّر ، والنفس الزكيَّة المطهَّرة .. وبمدَّة وجيزة ، وبزمن قصير نقلهم إلى منزلة رفيعة في الحضارة والأخلاق والعلم والعمل ، في محاربة الباطل والخرافات والوثنيَّة والفُرْقة والمنازعات ..

جاء الإسلام ليرقى بالإنسان إلى أعلى مستوى علمي وفكري وأخلاقي واقتصادي وسياسي وحضاري ... وأوْكَلَ إلى المسلمين تحرير العالم ، تحرير الشعوب على أساس أن الإنسان أخ الإنسان . وقام الإنسان العربي وحسب مخطط القرآن الكريم ، بعد امتثالٍ كاملٍ لله عزَّ وجل ، وتبعيَّة حقيقيَّة للإسلام ، والتزام محكَم لتعاليم وسُنَّة رسول الله ﷺ .. ليكوِّن بأقصر المُدَدِ ، وأقل الأزمان ، دولة عظمى ، موحَّدة في ثقافتها وسياستها ولغتها .

وحرص الإسلام منذ سِنِيِّه الأولى على وحدة العرب ، فأوجب وحدة عقيدتهم ، فالوحدة تنشأ من وحدة العقيدة ، وإذا اختلفت العقيدة تفرَّقت الأمَّة ، وحرصاً من النبي العربي الكريم ﷺ على وحدة الأُمَّة أَمَرَ وهو في مرض وفاته ألاَّ يبقى في جزيرة العرب دينان ، فأوجب على العرب وحدة العقيدة .. وكل وحدة بعد وحدة العقيدة تبع لها .

لقد صنعَ الإسلامُ وحدةَ العرب ، وصنع حضارتهم ، وصنع دولتهم ، فهم قبل الإسلام ، وقبل القرآن الكريم ، وقبل النبي ﷺ ، غيرهم بعد الإسلام والقرآن والنبي الكريم !

هل كانت لهم وحدة قبل الإسلام ؟ ومَنْ وَحَّدهم ؟

هل كانت لهم حضارة عالمية قبل الإسلام ؟ وَمَنْ أقام صَرْحَها ؟

هل كانت لهم دولة قبل الإسلام ؟ مَنْ بناها وَمَنْ أَسَّسَها ؟

وحدتهم ، وحضارتهم ، ودولتهم كانت من صنع رجال حملوا فكر الإسلام بعد أن تخرّجوا من مدرسته ، دخلوها بعد علم ودراسة وبحث وحوار .. فكان منهم أبو بكر وعمر ، وعثمان وعلي ، وخالد وسعد ، والمثنّى والنعمان ، وموسى وطارق ، والسمح والغافقي ، وابن القاسم وقتيبة بن مسلم الباهلي ... وغير هؤلاء كثير كثير .

هذا الإسلام الذي أعزَّ العرب وكتب أمجادهم وتاريخهم وانتصاراتهم .. يُعْرَض عنه .. ويتنكَّر له العرب اليوم ، إما باعتناقِ فكر مضاد بلا بحث وبلا دليل أو تمحيص ، وإما بطرح شبهات حوله تتلاشى أمام حقيقته العلميَّة .

فالحقيقة كالشمس لا يمكن إطفاؤها مهما جوبهت أو حوربت ، ومهما تكاثر عليها الأعداء وتكاتفوا .. ولو تحقَّق بعض النصر في بعض جولات الباطل ، فالحق هو الصامد ، وهو الثابت ، وهو المنتصر ، وهو الدائم الباقي ، فإن للباطل صولة وجولة ، ولكن للحق الدوام والخلود .

لقد اعتور الإسلام والمسلمين أرزاء كثيرة ، منذ فتنة ابن سَبَأ ، إلى الغزو التتري ـ المغولي ، مروراً بالغزو الصليبي الأوربي ، وانتهاءً بالاستعمار الحديث ـ العسكري والفكري ـ ، وعلى الرغم من ذلك فقد بقي الإسلام شامخاً صامداً ، محتفظاً بكل مقوماته وشخصيته المتميِّزة . وهو اليوم صيحة أوربة ، وتطالعنا الصحف العالمية في كل أسبوع بناس من الشرق ومن الغرب يدخلون في دين الله أفواجاً ، مما يثبت أن الإسلام تفهمه العقول المتحرِّرة الناضجة الموضوعيَّة ، وتعتنقه الدول والأمم الرَّاقية .

في اليابان اليوم مئات الألوف من المسلمين اليابانيين . فالبروفيسور الدكتور شوقي فوتاكي رئيس المؤتمر الإسلامي الياباني له جهود مشكورة في مجال الدّعوة الإسلاميَّة ، إنه طبيب يقضي وقته لخدمة المرضى والمراجعين في مستشفاه في حي

(شنجيكو) بطوكيو ، وفي الوقت نفسه ينشر الدّعوة الإسلاميّة على مدار السّنة دون إجازة يوم واحد .. وقد بلغ عدد الذين اعتنقوا الإسلام على يده وحده أكثر من خمسة وعشرين ألفاً من اليابانيين في غضون السنوات الخمس الأخيرة .

وكان ممن أسلم على يد البروفيسور فوتاكي الوزير الياباني السّابق للبريد والمواصلات السلكيّة واللاّسلكيّة (جوشيرو كومياما) وتسمى باسم (محمد كومياما) ، وهو أول شخصيّة سياسيّة بارزة في اليابان يعتنق الدّين الحنيف ، ويشغل حالياً منصبين مهمين في الحزب الديمقراطي الليبرالي هما : رئيس مجلس أبحاث النقد ورئيس وكالة العلوم والتكنولوجيا .

ومما قاله (كومياما) لصحيفة (القبس) في عددها ٢٣٨٠ ، الصادر يوم الاثنين ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ م : لقد تأثرت بشقيقي مدير بنك (هيواميوتشيال) ، وقد سبقني إلى اعتناق الإسلام .. القرن الحادي والعشرون الذي نطل عليه هو قرن الدّين حتماً ، وهذا يعني تنمية القيم الروحيّة بعد مراجعة الحضارة الماديّة . والإسلام هو دين الإنسانيّة بأجمعها ، وهو دين القرن العشرين ، فإن مليار المسلمين سوف يتضاعف ، وسيدخل الإسلام ملايين كثيرة . إن الدعوة الإسلامية تتطور في اليابان تطوراً ديناميكيّاً ، والفضل الرئيسي في ذلك للدكتور فوتاكي رئيس المؤتمر الإسلامي ، وأنا أرى أن آفاق هذه الدعوة ستتسع كثيراً .

أجانب يدخلون الإسلام ، وَيُقْبِلون عليه ، ومن أبنائه من يهجره أو يحاربه ؟!؟

أغراب يعتزّون ويتشرّفون بالانتساب إليه ، ويتركون دينهم ، دين آبائهم ، ويعملون في سبيله وهم في أرقى مستوى علمي ، ومن المنتسبين إليه من يحاول طعنه ؟!؟

يريدونها عروبة بعيدة عن الإسلام ، متخلّية عنه ، ولو سار العرب كما أراد أبو جهل ، وأبو لهب ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وعبد الله بن أبيّ بن سلول ... عروبة ولا إسلام ، لما بقي للعرب ذكر في العالمين . فالوحدة العربية ، وانتصارات العرب الخالدة عبر تاريخهم ، وأمجادهم .. أثر من آثار الإسلام .

ونحن في هذه الطبعة نضيف بحثين اثنين جديدين :

ـ بحثاً عن الطوفان وإمكان وقوعه .

ـ وبحثاً عن الحجّ وما يوجه إليه من ملاحظات .

وذلك بالإضافة لما طرحه صاحب (غزوة ذات النطاقين) . سائلين الله السّداد في الرأي ، والمثوبة منه عزّ وجل ، فهو من وراء القصد :

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ☆ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الرّعد ١٧/١٨] .

الشام في ١ / ١ / ١٤٠٠ هـ
الموافق ٢٠ / ١١ / ١٩٧٩ م

شوقي أبو خليل
دمشق ـ سورية
ص٠ب ٦٢٢٢

تصدير

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ، فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

[الأعراف ١٦٤/١٦٥]

بسم الله القائل : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوا عَنْهُ وَأَنْتُم تَسْمَعُونَ ، وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ ، [الأنفال ٢٠/٢١] .

والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وإمام المجاهدين ، المبعوث رحمة للعالمين القائل : « اللّهم أرِنا الحّق حَقّاً وارزُقْنا اتباعه ، وأرنا الباطِلَ باطلاً وارزُقْنا اجتنابه » ، وبعد ...

جلست للعمل في غرفة واسعة ، ضمت بضع مناضد ، قبع خلف كل منها إنسان مكلَّف بعمل ، ومل بعضهم من الوقت الرتيب الذي يمر .. فراح ثلاثة أو أربعة منهم يتناقشون في أمور بدأت تاريخية تتعلق بتاريخنا الإسلامي ، وانتهت بأحكام تمس الإسلام فكراً ومنهجاً .

لم أتدخل في النِّقاش الذي بدأ هادئاً متزناً .. غير أنه سرعان ما تطور واحتدم ، فعلت الأصوات عندما بدأ أحدهم يطرق مسألة الرّقيق في الإسلام ،

فقال مُدافع : رأي الإسلام صريح في إنهاء الرَّقيق بمراحل مدروسة . لكن متزعم النّقاش ، وكان في موقفٍ معادٍ للإسلام ، قال : (في **غزوة ذات النطاقين** لم يطلق محمّد الأسرى) ، وتابع حديثه يبني على **(غزوة ذات النطاقين)** مايبني من أحكام واستنتاجات وإدانات .. واستخلص نتيجةً أراد فرضها حقيقةً غير قابلة للنقاش فقال : ما أخرّنا إلاّ الإسلام ، وهو عقبة في وجه تقدمنا ، وإذا ما أردنا الرُّقي فما علينا إلاّ أن ننبذ الإسلام . وقال آخر يعتنق هذا الرأي : كلام سليم .. وضحكا ساخِرَيْنِ من الطَّرفِ المدافع عن الإسلام .

وهنا .. وجدت فرضاً عليَّ أن أتدخل .. فقمت تجاه المتناقشين ومرَّت على ذاكرتي خلال الثَّواني الَّتي وصلتُ بها إليهم طُرْفَةُ الجاحظ عندما قال : سمعت في (واسط)[1] رجلاً يقول لآخر : **الزم السُّنّة ، حتى تدخل الجنَّة ، فقال له الآخر : وما السُّنَّة ؟ قال : حبُّ أبي بكر بن عفّان ، وعثمان الفاروق ، وعمر الصّديق ، وعلي بن أبي سفيان ، ومعاوية بن أبي شيبان . فقال الرجل : ومَن معاوية بن أبي شيبان ؟ قال : رجل صالح من حملة العرش ، وكاتب النبي ﷺ وختنه[2] على ابنته عائشة .**

استأذنت ... وسألت من أصدر أحكامه على الإسلام وأدانه : ماثقافتك ياأخ ؟

فأجاب : أحمل الثّانويّة العامّة ، وسأنتسب إلى جامعة دمشق ..

قلت له : أحكامك الّتي خرجت بها قيّمة ، لو بنيتَ أسُسَها على حقائق علميّة سليمة .. كنت أريد التّدخل منذ بدأ نقاشكم .. وزاد فضولي لما سمعت منك

---

(١) واسط : مدينة بين البَصْرة والكوفة . راجع معجم البلدان ٣٤٧/٥ « طبعة دار صادر ، بيروت » .

(٢) الختن : كل من كان من قِبَلِ المرأة ، مثل الأَب والأَخ ، وهم (الأَختان) هكذا عند العرب . وأما العامة فخَتْن الرجل عندهم زوج ابنته .

اسم غَزْوَةٍ جديدة . لم أقرأ عنها شيئاً في كتب السِّيرة .. وهنا ارتسمت علاماتُ الاستغراب على محيَّاه ، ولكنني تابعت قولي : كيف تخرج بنتائج تريد فرضها على مَن حولك ، وأنت مازلت تجهل من هي (**ذات النطاقين**) ، أهي غزوة خاضها المصطفى ﷺ ، أَمْ هي أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما[1] ؟! ورويت له طُرْفَةَ الجاحظ ، الَّتي مرت على خاطري أثناء سيري نحوه .

وهنا ضحك الطرف المدافع عن الإسلام ، فقلت له : مهلاً ، إنَّني ألومك أيضاً ، لعدم انتباهك إلى الأمر في حينه ، وأنصحك بتوسيع ثقافتك الإسلامية .

وعدت إلى صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) فقلت له : كيف تناقش أمراً مهماً ، ترتبط به قلوب وأفكار مئات الملايين من البشر ، قبل أن تدرسه أو تطلع على تفاصيله ؟ ألا تخجل وأنت تحمل اسماً عربيا .. أن لا تعرف من تاريخك خطوطه العامَّة ؟.

لا تعرف مَن (**ذات النطاقين**) ، ثم تبني ما تبني ، وتصدر من الأحكام ماتصدر على تاريخك ودينك ، كأنك غريب عنهما ، بل لكأنك عدو لدود لهما ، تريد إدانتهما ؟!.

الإسلام أخَّرنا ، وهو مصيبتنا ، وبتركه رقيُّنا ؟!

كيف نقبل منك هذا ، وأنت لم تطلع على إسلامك كما اتضح من استشهاداتك من خلال نقاشك ؟

---

(١) أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وهي زوج الزبير بن العوام ، وأم عبد الله بن الزبير ، وهي ذات النطاقين ، وكانت أسن من عائشة رضي الله عنها ، وهي أختها لأبيها .. سميت (**ذات النطاقين**) لأنها صنعت للنبي ﷺ ولأبيها سفرة (طعام المسافر) لما هاجرا ، فلم تجد ماتشدها به ، فشقت نطاقها وشدت السفرة به ، فسماها رسول الله ﷺ ذات النطاقين .. ماتت ولها مئة سنة في عهد عبد الملك بن مروان عام ٧٣ هـ . (راجع أسد الغابة ١٠/٧) .

قال : لا .. أنا أطالع كثيراً في كل يوم .

قلت : لا بأس ، كم من كتب السِّيرة الشَّريفة قرأتَ حتى عرفتَ وحفظتَ (**غزوة ذات النطاقين**) ؟ فسكت ، فقلت : إنك تقرأ كتباً ـ إن صحت مطالعتك ـ كَرَّست نفسها لتشويه الإسلام ، وتاريخ الإسلام ، اذكر لي مرجعاً واحداً فقط ذكر (**غزوة ذات النطاقين**) .

قال : لا يحضرني الآن ..

قلت : والله الذي لا إله غيره ، لو أنني أجد في مرجع واحد غزوة باسم (**ذات النطاقين**) لتهلت عليك ، وكنت معك أقل حدةً وعنفاً ، يا رجل ! أنت ممن أصابك جرثوم (**الدَّاء الأجنبي**) ، الَّذي من أعراضه مرض (**عقدة النقص**) .. فأنت تحكم دون اطلاع ، وتردد ما تسمع دون دراسة .

لو أردت أن تعرف سبب مرض حلَّ في عينيك ، لذهبت طائعاً مستسلماً إلى طبيب عيون اختصاصي ، تطيعه فيما يصفه لك ، ولا تناقشه في علمه .

ولو أردت أن تعرف سببَ مرضٍ حَلَّ في جهازك الهضمي ، لذهبت مستسلماً إلى طبيب مختص في الجهاز الهضمي .. تتتلمذ عليه ، وتطيع أوامره فيما يصف لك من حِمْيَةٍ ودواء .

أما في فكر وتاريخ الإسلام ، فأنت أستاذ كبير ، تصدر الأحكام دون الرجوع إلى مختصٍّ فيهما ، أو دون دراسة جادة لهما .

في مجال العقيدة ، أنت فيلسوف ناقد .. بلا ثقافة إسلامية ، وإن ما تنقده ليس إسلاماً صافياً كما جاء به رسول الرَّحمة ﷺ ، صورة الإسلام الحقيقية مشوهة في ذهنك يا صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) .

(الإسلام أخَّرنا) ، عبارة رائعة وصحيحة ، إن لم ننقضها على محك البحث

والعلم البعيدين عن (عقدة النقص) التي يسببها جرثوم (الداء الإفرنجي) الـذي حل في عقلك .

(الإسلام أخَّرنا) وها هو قـد تُركَ منـذ زمن بعيـد في كثير من المجتمعـات ، فهل تحسَّنت الحال وتقدّم من تركه ؟!.

إن من يفتش برؤيا علمية عن سبب تـأخرنـا وتخبطنـا يجد أن السَّبب هو تركنا للإسلام عقيدة ومعاملة وسلوكاً على أرض الواقع .

(الإسلام أخَّرنا) !! لماذا ؟

هل أمر الإسلام بمحاربة الوحدة ؟

هل أمر الإسلام بنبذ التآخي والتآلف ؟

هل أمر الإسلام بترك التَّصْنيع ؟

هل أمر الإسلام بالضَّعف والاستكانة للأَعداء ؟

هل أمر الإسلام بمحبة أعداء الإنسان : الفقر والجهل والمرض ؟

سل مستشرقـاً نـزيهـاً منصفـاً : هـل أخَّر الإسـلام الأُمَّـة العربيَّـة أَمْ بثَّ في جنباتها الحياة الكريمة ؟ فيجيبك : حضارة العـالم الحـاليـة ، ونهضتـه التي نستمتع بمخترعاتها اليوم ، مـا كانت لتصل إلى مـا هي عليـه لولا الإسلام والعلوم التي حض عليها . حضارة اليوم ما كانت لولا علماء الإسلام ، لأن مـا قـدمـه معتنقو الإسلام بدافع من تعاليمه ، هو الذي أوصل العالم اليوم إلى حضارة القرن العشرين .

يـا أخ .. هـل وَحَّـد محمَّـد بن عبـد الله ﷺ العرب أم فرّقهم ؟ جمعهم أَمْ شتتهم ؟ مَنْ غير الإسلام وحَّد العرب ووسَّع رقعة العروبة إلى قلب فرنسة ، وإلى حدود الهند والصِّين ؟؟

يا أخ .. نبوّة محمَّد المصطفى أطفـأت بهـديهـا عـداوة العرب بعضهم لبعضهم

الآخر ، وأضاءت بنورها سبل السَّعادة لهم ، وألَّفت بين قلوبهم ، وآخت بينهم ورفعتهم إلى مقام الإيثار .. فهل كان اجتماع العرب على قلب رجل واحد ، قبل محمد ﷺ أمْ بعده ؟

ألم يلم رسول الله شمل العرب ، وقد كانوا من قبل بأسهم بينهم ، فقاموا ليلمُّوا شمل الشعوب ؟

يا أخ .. يسعدنا أن نرى المهندس لا يتطفل على اختصاص المحامي ، ويسعدنا أن نرى المحامي لا يتطفل على اختصاص المهندس ، ويسعدنا أن نرى تسليم الحداد للطبيب في علم الطب ، وتسليم الطبيب للحداد في علم الحدادة . فكل دَرَسَ اختصاصاً علمياً فصار مرجعه بقدر تفهمه له ، وهضمه إياه ، والمختص إن تكلم فيما اختص به ، فأحكامه تؤخذ بعين الاعتبار لغير المختص .

يا أخ .. ويؤسفنا أن نرى كل الناس .. المثقف بثقافة ما ، وغير المثقف أيضاً ، يتحدثون عن الإسلام ، وكأنهم أمضوا حياتهم في دراسته ، فعرفوا مراميه وأهدافه ، وألمُّوا بجميع جوانبه ، فكأنهم فقهاء علماء فيه .

يا أخ .. أنت وأمثالك ما اطلعتم على الإسلام .. أفلا تشعر بتبكيت الضمير وأنت تخرج أحكاماً تظنها سليمة ، ولو حكَّمت عقلك فيها بموضوعية لثوانٍ لظهر فسادها .

يا أخ .. نحن نعرف عن الإسلام ما لا تعرف ، إننا نعرف ونعلم علم اليقين أن الإسلام هو دين الوحدة ، ﴿ **وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم** ﴾ ، [الأنفال ٤٧] .

ونعلم أنه دين القوة والعمل والأخذ بالأسباب : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللهِ وَعَدُوَّكُم** ﴾ ، [الأنفال ٦١] .

ونعلم أنه دين محاربة الفقر : ﴿ **رَبَّنا آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً** ﴾ ، [البقرة ٢٠١] .

ونعلم أنه دين العقل : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، [النور ٦١] .

ونعلم أنه دين التَّصنيع : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ ، [الحديد ٢٥] .

ونعلم أنَّه دين السُّدود والزِّراعة : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ ، [سبأ ١٥] .

ونعلم أنَّه دين المحبة والأُلفة والتعاون : ﴿ وَالمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .. ﴾ ، [التوبة ٧٢] .

ونعلم أنَّه دين العزَّة والكرامة : ﴿ وَللهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، [المنافقون ١٣٩] .

هذا هو الإسلام الَّذي نلتزم ونعتز به ، وندعو النَّاس إليه ، فهل من إنسان سويٍّ يرفضه ، وكل ما سبق من بعض معانيه ؟!

يا أخ .. أما إذا ظهر على لسانك عرض آخر من أعراض (الدَّاء الإفرنجي) .. ألا وهو الهجوم على الإسلام ، لا لشيء ، إلاَّ لأن الهجوم عليه تقليد وزي الموسم .. فدواء ذلك تنمية شخصيتك ، للانتهاء من عقدة النقص بدراسة إسلامك وتاريخك بشكل جدّي دون حكم مسبق عليهما ..

وأما إن أردت - وأمثالك - من هجومك أن يقال عنك إنك ذو شخصية متفردة متقدِّمة ، سَبَقَتْ زمانها ، ولتشتهر ويُذكر اسمك على كل لسان - كما يطالعنا بعضهم بين فترة وأُخرى - فإنني أذكِّرك أنه ليس كل من يُذكر يُذكر بخير ..

يُـذكر المصطفى ﷺ ، فتردد الملايين من مختلف شعـوب العـالم من قلـوبهـا الصلاة والسلام عليـه ، إقراراً بـالفضل ، وتحيـة محبـة وإجـلال وشـوق ، ويُـذكر (أبو لهب) فيذكر عند ذكره ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ ، [المسد ١] .

يذكر أبو بكر الصديق فتقول الملايين : رضي الله عنه ، ويذكر (مُسيلمـة) فيقترن باسمه كذبه وتدجيله ، فيقال : (مسيلمـة الكـذاب) ، وبقي نور الإسلام الذي حمله أبو بكر رضي الله عنه ، وانطفأت نار (الكذاب) إلى الأبد .

يذكر هولاكو فيذكر الدَّمار ، وتذكر بـذكره الهمجيَّة والوحشيَّة ، وتـذكر بغداد على الرغم من أنه دمرها فيقال : مدينة العلم والسَّلام .

يا أخ .. هاجمت الإسلام ، وتاريخ الإسلام ، بأمور عديـدة .. سـأذكر لـك الآن بعض الخطوط العريضة التي تحضرني ، والتي خالفت بها الحقيقة .. وسـأكتب ما سأذكره لك الآن بشكل منسّق موسّع في كتاب ، لأن ما قلتَـهُ داء تفشى ، وزيٌّ مستورد تزيَّت به عقول كثيرة تدّعي الثقافة ..

سأنشر ما سأقوله لك لسببين :

* لعل ما في الكتاب يكون دواء ينقذ من ليس بميؤوس شفاؤه .

* وتطبيقـاً لمضـون الآيـة : ﴿ **وَإِذْ قَـالَتْ أُمَّـةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُـونَ قَـوْمـاً ٱللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُم عَذَاباً شَـدِيداً قَـالُوا مَعْـذِرَةً إلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ، فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوءِ وَأَخذنَا ٱلَّـذينَ ظَلَمُوا بِعَـذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانوا يَفْسُقُونَ** ﴾ ، [الأعراف ١٦٤ و ١٦٥] .

دمشق : ١ شعبان ١٣٩٦ هـ
٢٨ تموز ١٩٧٦ م

شوقي أبو خليل
دمشق ــ سورية
ص.ب ٦٢٢٢

علم وإيمان

« إنّ العلم بلا إيمان ليمشي مشية الأعرج ، وإن الإيمان بلا علم ليتلمس تلمس الأعمى » .

« أنيشتاين »

* قال صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) : لا يلتقي العلم مع الإيمان بالله ، فإما علم وإما إيمان ، لقد خلَّف العلمُ الإيمانَ وراءه ، ووصل الإنسان إلى القمر ، وما زلتم تؤمنون بالله ؟! عصرنا عصر العلم ، وأنتم مازلتم في عصر الإيمان الذي انقضى .. لقد جاء العلم فقوّض أركان الإيمان ، فأنا ملحدٌ علمياً ، وأنتم مؤمنون غيبياً ...

* قلت يا صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) : ما زلت تخلط وتتخبط وتردد كلمات لا تدري مدلولاتها ، وما مراميها .

إن من قال إن العِلْم والإيمان لا يجتمعان ، قالها في واقع الدِّين في أوربة ، حيث عطَّلت الكنيسة العقل وحاربت العلم ، ورفضت الحقائق العلميَّة ، وحرّقت العلماءَ ، واكتفت بما قدمه أرسطو لها .

العلم أو الإيمان عبارة تصح هناك ، ولا تصح هنا ، هنا مئات الآيات تحض المؤمن على الأخذ بأسباب البحث العلمي والرقي الإنساني ، واستكشاف المخبأ من العلوم . وهناك مثلاً : العالم الفلكي الألماني (كيرشنر) في القرن السابع عشر من المسيحيين الجزويت ـ وكان على نزاعٍ معهم بسبب ما قدم من حقائق علميَّة ـ عندما طلب إليهم أن ينظروا بواسطة التلسكوب إلى البقع الشمسية ، رفضوا

ذلك بدعوى أن مؤلفات أرسطو لم تتضمن أي ذكر لهذه البقع الشمسية !

ومن قال لك إن العلماء الَّذين تحرّروا من سيطرة الكنيسة على أبحاثهم ، إنهم ملحدون ؟ لا شك أنهم ملحدون بإله بشر مثلهم ، غير أنهم مؤمنون بخالق عظيم لهذا الكون لا يمكن أن يكون بشراً .

يا صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) ، الإيمان في عقيدتنا يحض على العلم بكل فروعه ، ويطرب لتقدمه ، والعلم يثبت في النفس الإيمان ويدعو إليه ويجعله يقيناً .

مَن قال إما علم وإمَّا إيمان ، تنهار دعواه أمام الواقع ، وأمام العلم نفسه ، لأن العلم رفض المصادفة والعشوائية في الخَلْق . وقرر أنه لا بد لهذا الكون المُنَظَّم من مُنَظِّم ، وصار هذا أمراً بدهياً .

والفلسفة الماديَّة التي بنت إلحادها على نظريات نيوتن ، كان نتيجة طبيعية لها أن تنهار ، عندما انهارت نظريات نيوتن لعدم ارتقائها إلى مصاف الحقائق العلمية ، ألا ترى أن أنشتاين في نسبيته قد قوّض نيوتن وبدل أسس نظرياته ، فانهار بانهياره كل ما بُني على نظرياته[1] .

وبشكل أوضح .. إن الفلسفة المادية التي قامت على نظريات نيوتن ، وخصوصاً على تصريحه بوجود زمن مطلق ، ومكان مطلق ، ومنظوراً إليهما في ذاتها وبغض النظر عن متعلقاتها الخارجية ، جاءت حقائق النسبية لتقول : إن

(١) العالمان (بوندي) و (جولد) بعد اكتشاف هوبل لتمدد الكون وانتشاره ، رأيا أن المادة تتوزع على مساحات واسعة جداً ، بحيث نصل إلى أن لا يكون هناك مادة تذكر في الفضاء . لذلك يجب أن يكون هناك تعويض من المادة بدل تلك التي تخلخلت وتوزعت ، يجب أن يكون هناك مادة تخلق باستمرار لكي تملأ الفراغ الذي يحدث نتيجة التمدد .
والعلماء عندما يتكلمون عن حاجتهم لعملية الخَلْق لكي تكمل لهم نظرياتهم ، يجدون أنفسهم أمام الخالق مباشرة ، وبالضرورة (واجب الوجود) .

الزمن المطلق لا وجود له ، بل هو رهن بالحركة ، وكذلك لا وجود للمكان بل هو رهن بالأشياء المتمكنة (أي التي تحتل مكاناً) .

إن المطلق حلم دغدغ جميع العقول منذ فجر الفلسفة ، ومثل أعلى عندهم يصعب التخلي عنه ، لقد أحبُّوا المطلق ، وأرادوا أن يتصوروا الكون على غراره ، وكانوا يغمضون أعينهم عن متطلبات الكون التي لا تروق لا للعلم كما جاء به نيوتن ولا للفلسفة التي بنيت عليه .. وكأي من مرة اتهم العقل ذاته وتجاربه لأنها لا تصل إلى تحقيق المطلق ، فكأن الفلسفة المادية تحاول (فاشلة) أن تصحح الكون الذي يتمرد على كل إطلاق ، وأن تفرض عليه ما يجب أن يكون .

إن قوانين (الميكانيك التقليديَّة) في علم البصريات مثلاً ، فرضت وجود (الأثير) في الكون ، وقالت هذه القوانين - والتي هي ميكانيك نيوتن - في القرن الثامن عشر والتاسع عشر : بأن الضوء يتألف وينتقل على أمواج ، فلا بد من وجود وسط حامل لهذه الأمواج ، كالصوت الذي تنتقل أمواجه على الهواء .. فلولا الهواء لما وجدت أمواج الصوت ، وكذلك الضوء فإن وسطه هو (الأثير) .

وإذا شبَّهنا أمواج الضوء في الأثير ، بأمواج الصوت في الهواء ، قامت صعوبات جمة لا بد من مواجهتها .. ترى إذا كانت الأرض تسبح في الأثير ، فهل من الممكن الوقوف على حركتها فيه وهي تدور حول الشمس ؟ وهل يكبح هذا الأثير سير الأرض وغيرها من الأجرام السَّماوية وهي تندفع فيه ؟ وهل تجر معها كمية منه كما هي الحال في الطائرة أو القذيفة ؟

أجابت الميكانيك التقليدية جواباً متناقضاً : فقالت : (لا) تارة ، وقالت : (نعم) تارة أخرى .

وجاءت تجربه الدكتور « ميكلسون » والأُستاذ « مورلي » في كليفلند (أمريكة) عام ١٨٨١ م ، عن سرعة الضَّوء الذي يسير معاكساً للكرة الأرضية ،

والَّذي يسير في اتجاهها ، بنتائج خطيرة بالغة الدِّقة ، لأَنها سدَّدت ضربة قاصمة لفكرة (الإطلاق) في الطبيعة .. وقررت أن كلّ شيء في الطبيعة (نسبي) .

وزادت الأزمة التي كانت تعاني منها الفيزياء التقليدية ، والميكانيك التقليدية ، فطفح بها الكيل ، وكان لا بد لها أن تتمخض عن مولود جديد ، فتمخضت عن (أنشتاين) الذي جاء على موعد مع الأحداث .

وصارت نتائج أنشتاين ذات أهمية كبيرة ، لأنه أثبت تجريبياً أن الضوء يتصرف تصرف الأجسام المادية سواء بسواء ، وأن له كتلة ، وبالتالي فإن الطاقة لها كتلة .

وأيَّدت ذلك أبحاث العالم الرِّياضي الفرنسي (ليفيرييه) الخاصة بحركة عطارد ، حيث لوحظ أن موقع حضيضه لا ينطبق على نتائج ميكانيك نيوتن ، بل ينحرف بمقدار معين من الثواني ، وهذا الفرق الذي استعصى تفسيره على جميع العلماء ، لم يعد سراً بعد ظهور النظريَّة النسبيَّة العامَّة ، التي حسبت مقدار الانحراف ، وجاءت ملاحظات الرّصد الأُخرى لعطارد ، وتربو على الستة آلاف منذ عام ١٩٠٠ م ، وقوبلت بملاحظات الأقدمين فأيدت أنشتاين[١] .

لقد بنَت النظريَّة الماديَّة نظرتها للكون على أنه لا نهائي ، ولكن أنشتاين أثبت حسابياً وعلمياً أن الكون مقفل على نفسه ، فله حجم مغلق ، وبالتالي فهو محدود ، وكلمة محدود فلسفياً تعني الكثير ، لأَن المحدود له بداية ونهاية ، تنتفي عنه صفة اللاَّنهائيَّة والأزليَّة ، وتلصق به صفة الحاجة والخَلق .

إن العلم الذي ارتقى إلى مصاف الحقائق العلمية ، والتي جاء بها أنشتاين ، جعل الإنسان أمام حقيقة ، هي أن لا بد لهذا النظام الكوني من مُنَظِّم .

---

(١) راجع كتاب : (أنشتاين والنظريَّة النسبيَّة) للدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا ، دار القلم ـ بيروت ، ط ١٩٧٤ م .

وأنشتـاين يعتقـد بنـوع من (العقـل الكـوني) ، وبنظـام يسـود في الطبيعـة ، ووظيفة العلم هي أن يعمـد إلى اكتشـافـه ، ويقول في ذلـك : « بـدون الاعتقـاد الجازم بالنظام الباطن الذي يسود عالمنا ، لما قامت للعلم قائمة ، فهذا الاعتقـاد هو الدافع الرئيسي لكل خلق علمي ، وسيظل كذلك إلى الأبد » .

ويقول : « من الواضح أنَّ كل بحث علمي دقيـق يقـوم على عقيـدة مشـابهـة للشعور الديني مؤداها أن العالم مؤسس على العقل ومن الممكن فهمه .. »[1] .

« إن أجمل انفعـال يمكن أن تهتز لـه نفوسنـا هو الانفعـال الصُّوفي ، فهو أصل كل فن ، وكل حق ، فمن ينعدم فيه هذا الشعور ولا تجد الدهشـة سبيلاً إلى نفسـه ويحيا هلوعاً جزوعاً ، إن هذا ميت والسَّلام ، إن معرفة أن ما لا نـدركـه موجود حقاً ، ويتجلى حكمة وأي حكمة ، وجمالاً وأي جمال ، فلا ترى منه ملكاتنا الفقيرة غير أشد صورة فجـاجـة ، أقول هـذه المعرفـة ، وهـذا الشعـور ، همـا محور الشعور الديني الصحيح ، فبهذا المعنى ، وبهذا المعنى وحده ، أضع نفسي في مصاف الرجال المتدينين تديناً عميقاً »[2] .

ويرى أنشتاين أن هذه التجربة الداخليَّة الروحيَّة القلبيَّـة تبلغ القمـة لـدى علماء الطبيعة ، ولا سيما العاملين منهم في حقل الفيزياء والرياضيَّات ، وهو يرى أن التجربة الدينيَّة الكونيَّة أشرف تجربة وأقواها ، وهي تنبثق من البحث العلمي العميق .

* وملخص القول :

إن الفيزياء الحديثة عام ١٨٨٥ م وقعت في أزمـة ، عنـدمـا بحثت في طبيعـة الأثير ، الـذي يُنْقَلُ عليـه الضـوءُ على شكل أمـواج ، وفشلت تجربـة (ميكلسـون

---

(١) (أنشتاين والنظرية النسبية) ١٢٩

(٢) المرجع السابق ١٢٩ أيضاً . وقد أوردنا النص حرفياً .

وموزلي) فانتعشت بذلك المادِّيَّة .. وهذا ما يثبت صلة الفلسفة بالعلم ، فعلى نتائج العلم وحقائقه تتغير وتتبدل الفلسفة .

ولكن سرعان ما انكمشت المادِّيَّة على نفسها ، عندما انهارت نظريات نيوتن أمام الحقائق العلميَّة التي أثبتها أنشتاين .. فحاول (أرنست ماخ) النَّمساوي التوفيق بين المادية الجدلية وما جاء به العلم الحديث ، فاتهمه (لينين) بتمييع المادية الديالكتيكية منتهزاً فرصة انتعاش الفيزياء الحديثة ، وخاصة الفيزياء الرياضيَّة ، حينما حسبت بالرياضيات ، وبالرياضيات فقط ، إن الإلكترون إذا سار بسرعة الضوء ازدادت كتلته ستة أضعاف ، وبعد سنين حُققت هذه الحسابات الفكريَّة عملياً بشكل مادي ، إذن : الفكر أولاً ثم المادة ، على عكس ما قاله الماديون ، بأن المادة أولاً ثم الفكر .

الأستاذ (هارلو شيبلي) أبرز الفلكيين في القرن العشرين ، فهو أستاذ الفلك العملي في جامعة (هارفارد) ، كتب في الفلك وفلسفته كثيراً ، ومن أعماله تحديده لموقع النظام الشمسي من مجرتنا . يقول في مقدمة أحد كتبه :

« إن العلماء يشغلون أنفسهم بأفكار وأبحاث عن جغرافية الكون ، وبعض الفلاسفة يهتمون بعلم الكون ، لكن هؤلاء كلهم نتيجة دراستهم للعالم الفيزيائي يجدون آخر الأمر أنهم يبحثون العالم كله ، ويتعرفون على حقائقه من خلال أربعة جواهر أساسية ، هذه الجواهر هي : **الزمان والمكان والكتلة والطاقة .** والحقيقة أن أي علم تجريبي لا يُبْحَثُ إلا من خلال هذه الجواهر الأربعة ، أو من تداخلها مع بعضها البعض ، فالحركة والسُّرعة والدورات الحيويَّة كلُّها من خلال هذه الجواهر » .

ويتساءل : « **أليس هناك جوهر أساسي لتسيير هذا الكون ؟!!** » أو بشكل آخر : « إذا كان لديك القوة الكاملة ، والفرص المناسبة والرغبة وأعطيت هذه

الجواهر الأربعة الأساسية : المكان والزمان والمادة والطاقة ، فهل تستطيع أن تشكل كوناً مثل هذا الكون ؟ **أو أنك ستشعر بأنك عاجز عن ذلك وتحتاج أيضاً إلى جوهر خامس لكي ينظّمه لك ؟!؟** »

إن هذا الجوهر الخامس وهو الأسمى موجود لا شك فيه ، وهو يختلف اختلافاً كاملاً عن الأربعة التي ذكرناها فيا سبق ، وهو (الصَّمَد) الَّذي لا غنىً عنه (Indispensable) ، ذلك الذي يبعث الوميض في عالم من النجوم والكائنات والقوانين الطبيعية التي لولا هي كذلك لما كان هناك كون .

ويقول حرفياً : « قد يفكر بعض القراء أنني بهذه الكلمة أعني الله ، لكننا يجب أن لا نستعمل في هذه القضيَّة العميقة بعيدة الغور ، يجب أن لا نستعمل هذه الكلمة المهمة الشاملة لجزء واحد من العالم فقط ، أو لمفهوم ندركه فهماً بدائياً بسيطاً ، إن من يبحث في حقل علم الكون سيدهشه أن يجد مميزات للعالم خبيئة ، تُسَيِّر ديناميكية العالم سيراً مستقلاً ، وتوجهه وتشكله وتدفعه ، ولها القدرة على كل شيء ، أي إنها قوة واعية ، لكنها بهذه الصفات لا يقتصر مداها على ما هو موجود على الأرض وحسب ، بل تشمل الكون كله باتساعه العريض »[1] .

* **إما عِلم وإما إيمان !** كلام يخالفه الواقع ، ويدحضه العقل .

ومن قال : إن الإيمان يتعارض مع المعرفة العلمية قلباً وقالباً ، نصّاً وروحاً ، فإن كلامه لا صحة له للأسباب التالية :

---

(١) ويعلق د. عبد الرحيم بدر على ماسبق بقوله : « وهكذا نرى أنَّ عالماً مثل هذا العالم ، قضى عمره في دراسة الفلك والمجرّات ، وأقاصي أنحاء الكون ، يصل إلى نتيجة أصبحت ظاهرة لديه ، وهي وجود قوة مسيطرة على كل الجواهر التي يعرفها العلماء ، ويحاول أن يثبت وجود الله علمياً . لكنه يكتب بهذه الطريقة المقيَّدة لأنه يعرف الَّذين يتكلم لهم ، فهم بعيدون عن الإيمان ، وهو يستطيع أن يخاطب هؤلاء بالعلم والعقل » . الفيصل ، العدد ٣٢ ، ص ١٢٠

١ ـ إن حقائق النِّسْبِيَّة هدمت كثيراً من نظريات الميكانيك التقليدية التي جاء بها (نيوتن) ، وبالتالي هُدِم ما بُني على مَهْدُوم . مع أن العلماء يعترفون لـ (نيوتن) بالمقدرة العلمية في قوانين الجاذبية وقواعد الحركة .. إلا أنهم يعتبرون كلامه متعة فكرية عند كلامه عن الكون والفضاء الذي مدّه إلى ما لا نهاية ، وكأنه يقول لا أدري ؟!! ولقد قلب (أنشتاين) مفاهيم الفيزياء ، بل إن الفيزياء الَّتي جاء بها قد غطت على فيزياء (نيوتن) الكلاسيكية .

٢ ـ فلو أننا صدقنا ما يذهب إليه القائل من وجود تعارض بين الدِّين والعلم ، لكان معنى ذلك أن العلماء والمخترعين وأصحاب المكتشفات العلميَّة الفذَّة على مرِّ التَّاريخ ، جميعهم كانوا ملاحدة ، وهي نتيجة تدحضها الوقائع التاريخيَّة تماماً[1] .

٣ ـ إن القول بأن البحث العلمي يقودنا إلى قناعات وتعليلات تتنافى مع المعتقدات والتعليلات الدِّينيَّة السَّائدة سيضطرنا إلى الاختيار بينهما اختياراً حاسماً ونهائياً ، هذا القول فيه مغالطة واضحة ، لأَنَّ الدِّين الَّذي رفض المعطيات العلميَّة وناقضها هو دين أوربة ، وليس الإسلام هنا في ديارنا ... إن الدِّين الَّذي لم يتخلّ عن تفسيرات أرسطو ، يصح عليه القول السَّابق ، أما الدِّين الذي سبق إلى كثير من الحقائق العلميَّة كمعجزات في كتابه المقدس فلا ينطبق عليه القول السَّابق .

* **عِلم وإلحاد ، أو إيمان ودين ، قول ينقضه الواقع :**

لقد نشر الدكتور (دبنرت) الألماني بحثاً حلَّل فيه الآراء الفلسفيَّة لأكابر العلماء ، بقصد أن يتعرَّف على عقائدهم ، فتبين له من الدِّراسة لمئتين وتسعين أنَّهم كما يلي :

---

(١) راجع (الفكر المعاصر) العدد ٦١ ، مارس ١٩٧٠ م ، مقال (الخبرة الدِّينيَّة والإيمان) .

ـ ٢٤٢ من هؤلاء العلماء أعلنوا إيمانهم الكامل بالله .

ـ ٢٠ لم يهتموا بالتفكير الديني .

ـ ٢٨ لم يهتدوا إلى عقيدة[١] .

وعلى ذلك فإن ٩٠٪ مؤمنون ، والمتردِّدون أغلب الظن سيصلون إلى الإيمان ، ومن لم يهدهم العلم إلى الله يعانون نقصاً ، ما من شَكٍّ أنهم لو تخلصوا منه لوصلوا إلى الله .

وفي عام ١٩٧٠ م ، عندما كنت في صدد إصدار كتابي (الإنسان بين العلم والدِّين) طرحتُ على مُدرّس كان يدرِّس مادَّتي الفيزياء والكيمياء في ثانويَّة كنت مديرها ، قلت له : إنك تحمل البكالوريوس في الفيزياء والكيمياء ، فهل دلتك دراستك على الإيمان بالله ، أَمْ على الإلحاد ؟!. فذهل الأُستاذ المدرِّس ، ونظر إليّ مستغرباً ، فكرَّرت السُّؤال ، فقال : تذكرت أُستاذي في الجامعة ، وسرحت بمخيلتي نحوه . قلت له : لم تجبني عن سؤالي !! قال : سؤالك ذكرني به . قلت : لماذا ؟ قال : كان عندما يرسم على السبورة بُنْيَةَ الذَّرَّة ، يعتريه شعورٌ دينيٌّ عميق ، وتراه كلَّما نظر إليها يرى جلال الله فتسيل دموعه على خدَّيه خشية لله ، واعترافاً بجلاله وعظمته . وكان يقول لنا : انظروا إلى نظام الكون هنا ، الكون كلُّه بنظامه في هذه الذرة ، إن فلقتَ ذرةً وجدت كَوْناً .. وكان يقول : انظروا إلى إلكترونات وبروتونات الذرة ، لو نقلت إلكتروناً أو زدت إلكتروناً لتغيَّر العنصر .. والعلم يقول إن في الكون من كل شيء زوجين اثنين ، تصديقاً للآية الشريفة : ﴿ **وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ** ﴾ [الذاريات ٤٩] ، لقد أوضح (ديراك) عام ١٩٢٨ م أن في نواة الذرة لكل جسيم جسيماً مضاداً ، أو

---

(١) مجلة الأزهر ، المجلد ١٩

جسيماً نظيراً ، ثم أوضح العالم (أندرسون) عام ١٩٣٢ م هذه الحقيقة ، فأوضح التزاوج بين جسيمات الذرة وقال : إن في جسيم نواة الذرة جسيماً مضاداً ، له نفس الصفات فيما عدا واحدة معاكسة ، فالبروتون له بروتون مضاد ، والنترون له نترون مضاد ، والنيترينو له نيترينو مضاد وهكذا ..

لقد أثر فينا هذا الأُستاذ وجعلنا نشعر بعظمة الله ، من خلال بنية الذرة .

قلت : شوقتني إلى معرفة اسم هذا الأُستاذ .

فقال : إنه الدكتور عبد المنعم العشري رئيس قسم الفيزياء في جامعة عين شمس .

فقلت في نفسي : سبحان الله .

☆ ☆ ☆

الماديون أشد الناس اعتماداً على الغيبيات

* ومن شبابنا من يرفض الإيمان لأنه يعتمد على الغيبيَّات ، والعلم يعتمد على التجربة والمادة . وهذا كلام مرفوض أيضاً . إن من يتكلم بالعلميَّة والماديَّة ويرفض الغيبيات ، هو من أشد الناس اعتماداً وإيماناً وتعلُّقاً بالغيبيات .

الماديون ينكرون القول بخلق الله للكون ، ويقولون إن المادَّة أوجدت نفسها بنفسها .. من رأى ذلك ؟ من رآها توجد نفسها بنفسها ؟

الماديون يتكلمون بلغة مَن لمس ، بلغة الواقع الحِسِّي وهم بعيدون عنها ، فقد لجأ الماديُّون إلى الغيبيات ليبرهنوا على النشوء والارتقاء ، وتكلموا عن غيبيات ميتافيزيقية ، منطلقين من افتراضات أعطوها قيمة التجربة والحس بالواقع .

إن من يرفض الإيمان لغيبياته ، ويدعي العلم والإلحاد ، يتناقض مع

نفسه ، ويتناقض مع المقدمة التي بدأ منها ، لقد بدأ وهو ينكر وجود كائن غيبي ، أو موجوداً (واجب الوجود) يقع خارج الإنسان لكنه انتهى بالتَّسليم بهذا الوجود لأشياء أخرى .

الغيبيات ليست نقطة واهية ضعيفة في فكر المؤمن ، إنها نقطة واهية ضعيفة في فكر الملحد ، فعندما يتحدث المادي الملحد في الغيبيات يُغرقُ بها معتمداً على افتراضات ما أقرها العلم التجريبي ، كأصل الكون والمادة ، والفكر وتطوره ، أما المؤمن فقد جاءته معجزات خارقة لقوانين الطبيعة أثبتت له وجود غيبيات ، وما زالت المعجزات في كتاب الله تظهر في كل عصر لتثبت الوحي والنبوَّة[1] .

☆ ☆ ☆

مستقبل المادية

على ماسبق ، أتوقع جازماً زوال الفلسفة الماديَّة وتداعيها بشكل كامل مع نهاية هذا القرن ، أو في مطلع القرن القادم ، وستصبح تاريخاً أمام ضربات العلم وحقائقه ، تُدَرَّس مع ميكانيك (نيوتن) التقليديَّة كمرحلة فكريَّة مرت على البشريَّة ، وسيجد العالم نفسه أمام واقع يدفعه بإلحاح إلىّ معرفة الله ، لا كبشر مثلنا ، بل قوة عظمى تُسَيِّر وتُنَظِّم الكون ، وبها يقوم الكون . **وسيجد العالم نفسه بحاجة إلى دين يلائم العصر ، يجمع بين العلم والإيمان ، دين يجعل الإيمان مبنياً على العلم ، ويرفع العلم إلى مرتبة العبادة .. ولن يجد أمامه إلا الإسلام ليس غير .**

سيجد العالم نفسه بحاجة إلى (**إيمان علمي**) ينهي فراغه الروحي ، وينهي بالتالي القلق والخوف وحوادث الانتحار ومئات الأمراض التي تنشأ من فقدان

(١) تحدثنا عنها حديثاً مفصّلاً ، في كتابنا : (الإنسان بين العلم والدين) .

الأمل بالمستقبل ، والخوف من شبح الماضي .. فالواقع اليوم يقول : إن أكثر البلاد تقدُّماً حضارياً ، أكثرها حوادث انتحار ، كالسُّويد .. فهي من أكثر بلاد العالم انتحاراً .. ولكي لا نكرر إحصائيات نشرت في كتب سبقت ، نذكر آخر الإحصائيات التي وردت من ألمانية ، حيث التقدم العلمي لا يُنكر ، وحيث توفرٌ المال والجنس ووسائل المدنيَّة والرفاهية .. إن كل ذلك ما غرس السَّعادة في النفوس وما أبهجها ولا جعلها في هناءة ، وكل ذلك ما غرس الأمل في القلوب يبعد عنها القلق ويقشع عنها اليأس .

طالعتنا الصحف ووكالات الأنباء في ٨ حزيران ١٩٧٦ م من فرانكفورت تقول : يبلغ عدد حالات الانتحار بين التلاميذ في ألمانية حوالي خمس مئة تلميذ سنوياً كما يبلغ عدد محاولات الانتحار بين التلاميذ التي تكتشف قبل وقوعها حوالي ١٥ ألف محاولة في العام .

وفي ٢٧ تموز ١٩٧٦ م ذكرت وكالات الأنباء من بون : يفكر واحد من كل ثمانية من الألمان الغربيين بالانتحار مرة على الأقل خلال حياته ، وتتركز هذه الرغبة في الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٢٠ سنة . وإن نتيجة استفتاء أجراه معهد بحوث آراء الأطفال والشباب على ١٥٣٢ شاباً ، أظهرت أن ١٣٪ قد فكروا بأنَّ الحلَّ لا يتم إلاَّ بالانتحار ، وأن ٢٣٪ من الطلبة الذين تركوا الدراسة في سن ١٩ ، راودتهم فكرة الانتحار ، بينما ٩٪ منهم قد حاولوا الانتحار حقاً[1] .

الفراغ الروحي بث اليأس والقلق في أوربة :

* إن الفراغ الرُّوحي الذي سبب وبث اليأس والقلق في أوربة بعد الحربين العالميتين الأُولى والثانية ، ظهر بشكل جلي واضح ، في مسرحية (**في انتظار**

---

(١) (تشرين) عدد الثلاثاء ٢٧ تموز ١٩٧٦ م ، العدد ٢٤٤

غودوت) ، لصموئيل بيكيت الفرنسي[1] ، هذه المسرحيَّة التي تُرْجِمَت إلى أغلب لغات العالم ، ومُثِّلت على أهم مسارحه ، ونال مؤلفها جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٦٩ م .

(**في انتظار غودوت**) ، مسرحيَّة الانتظار ، والأمل المجهول ، والمعنى غير المعروف ، إنها مسرحيَّة حالات القلق النفسي والتهيج العصبي .. إنها تمثل انتظار (الخلاص) ، وتنتهي المسرحيَّة ولم يصل ، ولم يحدث الخلاص ..

لقد كثر التعليق على هذه المسرحيَّة ، وكثرت التحليلات ، وما مرد ذلك إلاَّ تساؤل النقاد والكتاب : كيف تنال هذه المسرحية بما فيها من فراغ ورمزية جائزةَ نوبل ؟! والحقيقة كما أرادها صاحبها ظاهرة بيِّنة ، لقد صَوَّر نفسيَّة المجتمع الأُوربي وما غشيها من يأس وقنوط بعد الحربين ، فهي تنتظر (الخلاص) ، تنتظر الغوث لكيانها الروحي . وتنتهي مسرحية (بيكيت) ولم يحدث الخلاص ، بل ولم يتلمس القارئ أو مشاهد المسرحيَّة تباشيره .. لقد ترك كل إنسان يسرح في فكره ، ويتخيل سبل الخلاص ، وسبل نهاية القلق واليأس .. وأقول : لقد بدأت أوربة تضع يدها على سبل الخلاص ، وطريق النجاة ، ونهاية القلق النفسي ، والتهيج العصبي !! .

الضَّمير بَدَل الإيمان يَكْفِينا ؟!

ولقد حاول من تركوا الإيمان ظهرياً ، أن يجعلوا في المجتمع رقيباً آخر يحل محل رقابة الإيمان ، فقالوا : (رقابة الضمير) .

---

(١) ترجمت هذه المسرحيَّة إلى أغلب لغات العالم ، طبعتها وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي بدمشق عام ١٩٦٨ م ، وتجري المسرحية في زمن ومكان مجهولين بدون أحداث ، شخصان من عامة الناس ينتظران (غودوت) ، فمن هو غودوت ؟ وما الذي ينتظران منه ؟ المؤلف لايجيب ، بل يترك الأفق مفتوحاً أمام كل الأجوبة الممكنة ، إنها مسرحية الانتظار والأمل المجهول ، والمعنى غير المعروف . « من غلاف الطبعة العربية المذكورة » .

ونحن نقول : إن التجربة أثبتت أن رقابة الإيمان هي وحدها الَّتي تحدد سلوك وتصرف الفرد في المجتمع ، والإيمان الحق يخلق المواطن الصَّالح المسؤول . أما الضمير الذي يحمل معنى زئبقياً ، فإن له مقياساً خاصاً ، ومقياسه نسبي لدى كل فرد ، ولا رقابة حقيقية عليه ، إنه معدوم هزيل الردع والأثر ، وهو مهزوم في معظم الأعمال التي تحمل مغريات ، لأنه لا يخضع لرقابة تقيده ، أو تحول بينه وبين الإضرار في النَّاس ، ما دام الخوف من حساب الله قد فُقد ، وما دام القانون لا يصل إليه .

(إن الذين يُطيلون الحديث عن الضمير ، أو الوجدان ، أو الإنسانية .. تشهد أعمالهم بهزالة مفعول هذه التعابير في داخلهم) .

شكا أحدهم رجلاً ممن ينادون بالضمير ، ويدّعي المثاليات ، إلى آخر أمامي . فقال المشتكى إليه : دعه ، فإن ضميره سيؤنِّبه . فقلت لهما : وما الضمير ؟ أين هذه المحكمة العادلة التي لا تخطئ ، والَّتي يدعيها من لا إيمان له ؟ من لا إيمان له لا رقيب داخلي في نفسه يحاسبه ويردعه ، لو كان لمن تشتكي عليه ضمير لحاسبه من قبل فعلته ، ومن نراه يقول : ضميري يؤنِّبني ، وهو يؤنبه ويحاسبه حقاً ، تراه قد نشأ في بيئة مؤمنة ، علمته الحلال والحرام ، الواجب والحقوق .. فما زالت في كوامن نفسه بذور الإيمان .

قال لي أحدهم بعد أن كلفني بعمل هامٍ وشاقٍ وفيه مسؤولية كبيرة ، قال لي بعد أن أنجزته : فيك ضمير . فقلت له : عندي إن شاء الله إيمان وإسلام ، إيمان يقول لي : إن الله معنا ، تقدم بثقة وقوة ، وإسلام يأمرني بالقيام بالواجب وخدمة الأُمة خير قيام . فدهش من جوابي .. وما كان فرد من مرؤوسيه ليرد عليه كلماته . وقال : سأكافئك بكذا وكذا .. فقلت : لا تفوّت علي ثواب الله ، ما قمت به طلبت ثوابه من الله فقط ، أرجو أن تدع الثواب والمكافأة والجزاء لله وحده .

وما سبق ثمرة من ثمرات الإيمان في عصر المادة ..

ثمراتُ ٱلإيمَانِ في عَصْرِ المادّة

☆ أما عن فائدة الإيمان في عصر المادَّة ، فيمكن تلخيصه بمضمون الآية الكريمة :

﴿ **وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ روحِ ٱللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن روحِ اللهِ إِلاَّ ٱلقَوْمُ ٱلكَافِرُونَ** ﴾ ، [يوسف : ٨٧] .

فمع الإيمان ينتفي اليأس ، وينقشع القلق .. لأن طاقاتك البشريَّة إذا ضَعُفت وعجزتَ ، تأتيك طاقة إلهية تعينك ، وتساعدك ، وتضيء نوراً أخضر لأمل جديد .

النبي ﷺ لم يرد اليأس إلى خاطره خلال سني دعوته . ففي الطَّائف وقد ردّته ثقيف بعد أن أعرضت قريش ، لا يأس ولا تراجع : « يا زيد إن الله ناصر نبيه » .

وفي غار ثور وقد أدركته قريش قال لأبي بكر : ﴿ **لا تحزن إن الله مَعَنا** ﴾ ، [التوبة : ٤٠] .. معنا بقدرته ، وبقوته ، ومعونته ، وحفظه ، ورعايته ، وعلمه ، وحكمته ﴿ **فَأَنْزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ ..** ﴾ ، [التوبة : ٤٠] .

مجتمع أفراده مؤمنون ، يحققون متطلبات الإيمان في نفوسهم ﴿ **فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون** ﴾ ، [البقرة : ٣٨ ، المائدة : ٦٩ ، الأنعام : ٤٨ ، الأعراف : ٣٥ ، الأحقاف : ١٣] ، لا خوف : أي لا رعب من المستقبل ، ولا حزن : أي لا كدر على الماضي ، المستقبل مطمئن إليه لأن الإيمان يأمره بالجد والعمل مع معونة الله ، ولا حزن : لا تأسي ولا كدر على ما فات .

الإيمان راحة نفسية في كل عصر ، ولكل فرد ، فدعاء (يارب) نورٌ للروح ، ويقينٌ للقلب ، وراحةٌ وطمأنينةٌ للنفس .. لذلك تنتفي عند المؤمن

الأمراض التي يسببها الغضب والحزن واليأس كتصلب الشرايين والخثرة الدموية ، والتي هي من أكثر أمراض العصر .

☆ ☆ ☆

أمْثِلة حَيَّة

١ً ـ تاجر احترقت مستودعاته ، بقي رجال الإطفاء يحاولون إخماد الحريق أكثر من اثنتي عشرة ساعة ، ولما عاد إلى داره ، وجد أُمَّه وزوجته تبكيان ، فقال لهما : لماذا البكاء والحزن ، الحمد لله الذي أخذ المستودع وأبقى صاحب المستودع ، أخذ الله شيئاً ، وأبقى لنا أشياء ، ومن أهمها الصحة والعافية .. سأبدأ من جديد ، ومن الله التوفيق ، إن هذا امتحان .. وسيجدني الله صابراً شاكراً مثابراً على العمل ، وما هي إلاَّ لحظات حتى دُقّ الباب ، وأُدْخِلَت أطايب الطعام ، كان قد أوصى عليها وهو في طريقه إلى منزله .. فأطعم أمه وزوجته ، وأكل معهما ، وطيَّب خاطرهما ، ومسح دموعهما .. مع أنه هو صاحب المصيبة .

٢ً ـ طفل في حدود العاشرة من عمره أو يزيد قليلاً ، رأيته يحمل بيده اليسرى يده اليمنى ، يظهر الألم على محياه ، ركب في (باص المهاجرين) يريد المشفى الوطني ، كان يردِّد : الحمد لله ، يا رب قدرت فلطفت ، يا رب أعني ، اللَّهم أنت الشافي .. أُعجب من في العربة ، حتى نزلت دموع بعضهم ، لصدق مناجاة هذا الطفل الذي سبق سنَّهُ بسبب إيمانه .

٣ً ـ مُدرّس تجاوز الخمسين من عمره ، تعرفت إليه بحكم طبيعة العمل ، لم يكن ملتزماً بدينه ، وكثيراً ما كان يظهر نقداً وسخرية منه ، لسانه سليط ، وتجريحه يصعب على كثيرين رده ، منذ سنة فقط ، انقلب انقلاباً جذرياً خلال أيام ، وصار داعية إيمان بشكل يدهش . سألته : ماذا جرى وما هذا التغير المفاجئ ؟ فأجاب : حادث جرى في بيتي منذ أيام ، قلت : إن لم يكن سرًّا ،

اشرحه لنا . فقال لي : زوجتي مؤمنة ، هادئة متّزنة ، وأنا دائماً في صخب وتوتر أعصاب ، قلت لها قومي لزيارة بعض الأقارب ، فلبستْ ولبستُ ، وبينما نحن على درجات العمارة ، زلقت رجلها ، وهوت على درجات البناء ، فأصابتها كدمات في وجهها ، ورضوض في رجلها . أعدتها إلى المنزل ، وألغيت الزيارة ، وقلت في نفسي أشياء وأشياء .. ونمنا تلك الليلة ، واستيقظت السّاعة الثالثة ليلاً ، فوجدت زوجتي على مُصَلاّها تقول : لك الحمد ربي ، قَدَّرْتَ فلطفت ، ربي .. كانت عنايتك كبيرة رائعة حفَّت بي ، مَن يقع مثلي كما وقعت وفي نفس الظروف ، فإن أقل ما يمكن أن يصيبه كسور في جسمه .. يا ربي إني راضية ، وأنا شاكرة حامدة .. ربي قدرت فلطفت فلك الشكر والحمد .

قال لي هذا المُدَرِّس : لقد ذهلت .. ولا أكتمك أنني كنت قد قلت في نفسي : لماذا هذا يا ربي ، لماذا عملت هذا بزوجتي .. ولكن الإيمان أمره عجيب ، ووقع في خاطري : **الإيمان أمن وأمان ، طمأنينة وهناءة** . فقمت إلى جانبها أحمد الله معها ، وأثر ذلك في نفسي وقلت : لماذا الضياع ؟ وإلى متى الضَّياع ؟ إلى متى الفرار من الله .. راحة النفس ، وسكينة القلب ، وسعادة الروح بقرب الله ، إنه الإيمان الّذي يصنع المعجزات . فأشهد أنني ملتزم بديني ، سعيد بإيماني بعد هذه الحادثة .

٤ً ـ أخ لنا مدرّس أيضاً ، أعير للسعودية ، وعُين في الطّائف ، سقط ابنه البكر من شرفة منزله هناك ومات . قال لي هذا الأخ : كنت أخاف أثر الصدمة عند والدته ، ولكنني فوجئت بإيمان راسخ تقبّل المصيبة عند وقوعها بهدوء واحتساب .. لقد قالت : الحمد لله على كل حال ، يا ربي .. أعطيتني أربعة أولاد وأخذت واحداً ، اللهم عوضني خيراً منه لديني ودنياي .

٥ً ـ في حج عام ١٣٩٥ هـ ، رأى آلافُ الحُجّاج حاجيَّن ، الأول أعمى والثاني مُقعد ، الأعمى قوي البنية ، والمقعد بصير العينين ، اتفقا على أن يحمل الأعمى

القوي ، البصير المقعد .. وهذا ما جرى .. لقد استفاد الأعمى من نور بصر الْمُقعد ، واستفاد الْمُقعد من قوة الأعمى .. فتبادلا المنفعة .. فحمل الأعمى الْمُقعد .. فصار الأعمى يسير بتوجيهات الْمُقعد الذي يحمله .. وهنا تتجلى قوة وروعة وعظمة الإيمان .. آلاف الكيلو مترات ، وفي وسط زحام رهيب ، حجّ الاثنان ، وتحملا مشقة تلذذا بها .. ما أعظم الإيمان فهو الدافع لهما ، وما أهنأ معيشة المؤمن .. وما أحقر الصعاب أمامه .

☆ ☆ ☆

فَضْلُ ٱلإِيمانِ عَلَى الْمُجْتَمع

☆ **إن فضل الإيمان على المجتمعات لا يُحَدُّ ولا يُحْصى .. فحين لا تصل يد القانون ، أو يد الدولة .. تصل يد الإيمان ، وهي ذاتية ، فيحاسب المؤمن نفسه قبل أن يحاسبه الناس .**

والإيمان محكُّه الأزمات .. وهو درجات ، وبقدر تمكنه في القلب تكون السعادة . لذلك كان بعض العارفين بالله يقولون : « **لو علم الملوك مافي قلوبنا من سعادة ، لحاربونا عليها بالسيوف** » .

مجتمع مؤمن ، نجد فيه الجندي يفعل المعجزات ، لأنه يهوى الشهادة أو النصر .

عامل وربُّ عمل ، العامل المؤمن حريص على مال المصنع حرصه على ماله وأهله ، وربُّ عمل مؤمن لا يفكر بأكل جهد عامل ، وكم من ربِّ عمل ، بدافع من إيمانه ودينه ، ولإيمان العامل وحرصه على مصلحة ربِّ العمل ، قد زوج ابنته لعامل عنده وجعله شريكاً في رزقه .

موظف مؤمن .. يحرص على حقوق المواطنين حرصه على حقوقه ، بل

ويحرص حتى على أوقاتهم من أن تضيع ، وعلى جهودهم من أن تذهب سدىً .

هذا .. والإيمان لا يعطِّل العقل .. بل يجعل العقل في منزلته الَّتي ارتضاها الله له .. في أسمى صُوَرِة .. وفي خير منزلة ، ففي الإيمان والعقل ، مع عناية ورعاية الله .. كمال الفرد ، وبالتالي رقي المجتمع ..

بالإيمان .. يؤدي الإنسان واجباته برقيب من ذاته ، ويؤدي الحقوق بدافع من نفسه ، بالإيمان يقف الناس عند حدودهم وتؤدَّى الحقوق بلا مشاحنات .. بالإيمان نستغني عن عشرات السجون ، ومئات المحاكم ، وآلاف الشُّرَط .. ونوفر دخلاً قومياً ينعكس على التَّصنيع والبناء ..

والإيمان مجرَّب ، فلقد حقق مجتمع السَّعادة والرفاه للجميع قولاً وفعلاً ، واقعاً وحقيقة .. إنَّنا لا ندعو لتجريب شيءٍ غير مجرب ، ولا ندعو إلى خوض تجربة غير معروفة النتائج .. فالعدالة الاجتماعية والإخاء ، والإنسانية ، والطمأنينة والأمان .. ثمرة من ثمرات الإيمان(1) .. الإيمان يقلب الغنيَّ من جامع للمال ، إلى منفقٍ ، من غني إلى مُغْنٍ ، ومن سعيد إلى مُسْعِد .. فهل نحن في غنى عنه ؟!.

إن عصر المادَّة اليوم .. عصر القلق ، وكثرة الانتحار ، وهضم الحقوق ، والأمراض النفسية ، وعصر الموت المفاجئ .. أحوج ما يكون إلى إيمان بالله ..

---

(1) قال أحدهم : « المؤمن يشعر بعقدة الذنب ، إذا خالف أمراً من أوامر الله طارده ذنبه » ، وهذا الكلام طبعاً في منتهى الخطأ ، والردُّ عليه بسيط ، وهو قول الله عزَّ وجل : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، [الزمر : ٥٣] . وقال ﷺ : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل .. » رواه مسلم ، وقال عليه الصلاة والسلام : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له .. » .. فأين عقدة الذنب ؟! أين عقدة الذنب والله يفرح بتوبة المؤمن فرح العقيم الوالد والمضيع الواجد ؟!

والواقع ينطق بحقيقة لا نقاش فيها .. **إن بلاد المسلمين أقل البلاد حوادث انتحار** .. بل تكاد تكون نادرة .. وما مردّ ذلك إلاّ إلى الإيمان .. فهل نحن في غنىً عنه ؟؟

إن مقياس التقدُّم العلمي المجرّد عن الإيمان ، أو (الدَّولة الأعظم) في عصرنا اليوم ، هي الدولة التي تمتلك أسلحة أفتك ، وقدرة تدميرية أكبر .. وقنابل ذرية مخزّنة أكثر .. مع خوف من نقض المعاهدات بسبب فقد الإيمان والانغماس المغرق في المادية والتكالب عليها .. والسلم لن يحل ، والسلام لن يتحقق إلا برقيب ذاتي ، هو الشعور بمراقبة الله . عندها تبتعد الأصابع عن أزرار الإطلاق ، ويلتفت العالم إلى إسعاد الخلق ومحاربة الفقر والجهل والمرض والقلق والخوف واليأس .. وكلما أغرق العالم في ماديته ، وزاد من فعالية أسلحته الفتّاكة ، يقترب من الشعور بحاجته إلى الإيمان .. وعندها ستصبح (الدَّولة الأعظم) ، الدولة التي تقدم الخير للبشرية أكثر ، وترسم الابتسامة على شفاه الشعوب أكثر .

☆ ☆ ☆

الدّين أفيون الشعوب

« إذا قـامت القيـامـة وبيـد أحـدكم
فسيلة[1] .. فليغرسها » .

(حديث شريف)

☆ **قال صاحب (غزوة ذات النطاقين) : الدّين أفيون الشعوب !!**

قلت مجيباً : اللّهم نعم .. اللّهم نعم .. اللّهم وألف نعم .

فدهش الرجل واحتار ، لقد توقع مني غير هذا الكلام ، فقـال : أنت موافق على أن الدِّين أفيون الشعوب ؟! قلت له : نعم .. أنـا موافق على هـذا القول ، أو على هذه النظرية التي ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : قيلت هذه العبارة بحق أوربـة عنـدمـا عطلت الكنيسـة فيهـا العقل وجمّدته ، وشكّلت طبقـة من الإكليروس متميزة ، ظهر منهـا ، مـا لا يليق بهـا .. وخـاضت صراعـاً عنيفـاً بين العلم والـدِّين ، وقـالـت لـلإنسـان : « **أطـع وأنت أعمى**[2] » .. لذلـك جـابهت العلمـاء ، وحرَّقت بعضهم ، ـ وعلى سبيل المثـال ـ جعلت القول بكروية الأرض ودورانها جريمة .

هـذه الأحوال المعطِّلـة للعقل ، والصـادَّة عن العلم ، والواقفـة عقبـة كأداء في سبيل تقدمه ، يحق فيها ما قيل عنها .

---

(١) الفسيلة : شجرة الغراس الصغيرة .

(٢) وردت العبارة في دائرة معارف لاروس (القرن التاسع عشر) تحت كلمة دين .

أما الدِّين الذي جعل من تعاليمه تقديس العقل وتكريم العلم والعلماء في أي اختصاص .. فلا ينطبق عليه القول ..

إن الدِّين الَّذي من تعاليمه : ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ ، [البقرة : ١١١] . لا ينطبق عليه القول المذكور .

والدِّين الَّذي جعل من مبادئه : ﴿ **يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ ، [المجادلة : ١١] . لا ينطبق عليه القول المذكور ..

لقد قال الباحثون الموضوعيون - **يا صاحب غزوة ذات النطاقين** - إن من قال : « الدِّين أفيون الشعوب » ، لم يكلف نفسه عناء دراسة الإسلام ، وظن أن كل دين في العالم ، هو كدين أوربة .. فعمَّم قوله ووثق بأول خاطر ظنه صواباً ..

إن الدراسة - التي عُمِّمت - تمت على واقع أوربة في القرنين الماضيين .. فالقول الصحيح : « **الدين - في أوربة - أفيون الشعوب** » .

يا صاحب غزوة ذات النطاقين ، سأضع بين يديك شواهد وأدلة من إسلامنا ، كل واحد منها كافٍ لرد التعميم القائل : « الدِّين أفيون الشعوب » .

١ - يقول الله عزَّ وجل في محكم التنزيل : ﴿ **لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُم إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَنْ يَفْعَل ذلِكَ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ ٱللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً** ﴾ ، [النِّساء : ١١٣] .

دين يجعل المجالس التي ليس فيها إصلاح للمجتمع لا خير فيها ، دين ليس أفيوناً ، إنه دين المجتمع الفاضل المتكافل المتحاب ..

٢ - دين يجعل من مبادئه : ﴿ **وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى** ﴾ ، [النجم : ٣٩] ، دين ينبذ الكسل والتواكل ، ويحب السَّعي والعمل .. استعاذ نبيّه ﷺ من الجبن والبخل والعجز والكسل ..

دين يجعل السعي مبدأ ، والعمل أساساً .. دين ليس أفيوناً .

٣ ـ دين يجعل من تعاليمه : ﴿ **وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ ، [التوبة : ١٠٦] ، دين يقدس العمل ويأمر به ، دين الحركة الدائبة في طلب الرزق الحلال .. ليس أفيوناً .

٤ ـ دين ورد في دستوره : ﴿ **وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ، فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا** ﴾ ، [مريم : ٢٤ ، ٢٥] ، فدين يعلم أتباعه ، ألا تواكل ، وأنتم في أضعف حالة من القوة والنشاط ، لن يصلكم رزقكم إلاّ بالعمل ، قدّموا طاقتكم ، وابذلوا مافي وسعكم .. دين حياة ، وليس أفيوناً ..

فالخطاب في الآية الكريمة لمريم ، وهي في ساعة الولادة .. ومع ذلك لم يرسل الله لها رزقها دون حركة وعمل .. بل قال لها : ﴿ **هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ..** ﴾ وهذا تعليم للمؤمنين .. ألاَّ رزق بدون سعي فلا رطب بدون هزِّ جذع النَّخلة .. فدين هذه تعاليمه ، هل هو أفيون ؟ لا أحسب عاقلاً يقول هذا .

٥ ـ قال نبي الإنسانية ﷺ : « **لأن يأخذ أحدكم أحبُلَه[1] ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكُفّ الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه** »[2] .

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام : « ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يديه ، وإنَّ نبي الله داود ﷺ كان يأكل من عمل يده[3] » .

قال ﷺ : « من بات كالاًّ من عمل يده ، بات مغفوراً له » .. ولما رأى

(١) أحبله (بفتح الهمزة وسكون الحاء وضم الباء) : جَمعُ حبل .
(٢) رواه البخاري ، راجع رياض الصالحين ٢٥٢ ، ط ٥ ، المكتبة التجارية الكبرى .
(٣) رواه البخاري ، راجع رياض الصالحين ٢٥٣

عليه الصَّلاة والسَّلام صحابياً يده خشنة قال له : « ما هذا الَّذي أرى بيدك ؟ » ، فقال الصحابي : من أثر المرّ والمسحاة[1] ، أضربُ وأعمل وأنفق على عيالي .. فسر النبي الكريم ، وقدر اليد العاملة فقبّلها ـ كما في إحدى الروايات ـ وقال : « هذه يدٌ لا تمسُّها النار[2] » .

فهل دين فيه هذا التقدير من نبيه للعمل والعمال ، دين تخدير وأفيون ؟ أيقول عاقل هذا ؟؟!! علماً أن من صريح تعاليمه : « إن الله يكره العبد البطَّال » و « إن الله يحب المؤمن المحترف » .

٦ ـ ورد في الحديث الشريف ، « **المؤمن كيّس فطن حذر**[3] » ومعنى المؤمن الكيّس : المؤمن العاقل المدرك .. أما المؤمن الفطن : فالمؤمن الذكي النبيه « ليس بالخب والخب لا يخدعه » .. منتهى اليقظة والتنبه .. فأين التخدير والأفيون ؟ الإسلام عقل مدرك ، وفطنة وذكاء ..

٧ ـ كان عمر رضي الله عنه يرى الرجل فيسأله عن مهنته ، فإذا قال لا مهنة لي ، سقط من عينه رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يقول : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقني ، فإن السَّماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » .

ونظر رضي الله عنه إلى رجل مظهر للنسك متماوت ، فخفقه بالدرّة ، وقال : لا تُمت علينا ديننا ، أماتك الله[4] » .

---

(١) المَرُّ : المِسْحاةُ ، وقيل مَقبِضَها ، وكذلك هو من الحراث ، [اللّسان : مرر] ، والمِسْحَاة : المِجْرَفَة من الحديد ، وجمعها : المَساحي ، [اللّسان : مسح] .

(٢) رواه أنس ، راجع (أسد الغابة في معرفة الصحابة) ٢٦٩/٢

(٣) رواه القضاعي عن أنس .

(٤) الكامل للمبرد ، ٢٧٨/١

وقال عمر على المنبر « من أحيا أرضاً ميتة فهي له[1] » .. وكان يشجع الناس على استقطاع الأرض الفلاة ، بغية إعمارها .. فأين التخدير والأفيون .. والإسلام عمل وعزة وإعمار ..

٨ ـ قال ﷺ : « **اللّهم بارك لأُمتي في بكورها**[2] » فالإسلام نبذٌ للكسل ، وهمّة عالية في استقبال نهار جديد ، خاصة أن عشرات الآيات الكريمة تحض على استعمال العقل والتفكير واليقظة ..

٩ ـ مَن يقول : (الدين أفيون الشعوب) بحجة عقيدة القدر تقول له كلمات : عقيدة القدر لا تفرض أنت معناها علينا ، المنطق يقول : نحن نفهمك ماذا نفهم منها ، نحن نشرحها لك ، ولست أنت الذي تفسرها بشكل يتناسب مع أهوائك .

الإيمان بالقدر .. إتيان بالأسباب على أكمل الوجوه .. ثم توكل على مسبب الأسباب ، وإن حدث ما يُسيء المرء وينغّص معيشته ، فالقدر يُبيد الحادثة المزعجة ، ويحفز همته من جديد لاستقبال أيامه المقبلة بيقين الواثق بالفوز ، وبأمل جديد يدفعه للمحاولة من جديد ..

فليست عقيدة القدر معطلة للهمّة ، باعثة للكسل والتواكل .. لقد كانت عقيدة القدر قوة دافعة إلى الأمام ، للجهاد ، للفتوح ، للاستشهاد ..

١٠ ـ وأخيراً .. والأدلة الداحضة كثيرة .. نختتم هذا البحث بقولنا :

لقد كانت هذه الأُمة في أفيون ، في مُخَدِّر .. عندما كان بأسها بينها شديد ، وعدوها يتربع فوق أرضها في العراق والشام واليمن مُخدّرَة عن عدوها بثاراتها وغزوها .. سكرانة في تفاخر أجوف ، وعظمة مفتعلة ..

(١) وهذا حديث شريف رواه البخاري والدارمي وأبو داود ، والحديث في الموطأ أيضاً .

(٢) رواه الترمذي في (البيوع) ، وابن ماجه في (التجارات) ، والإمام أحمد بن حنبل .

فجاءها الموقظ ، جاءها المحي ، جاءها المنشط ، جاءها الحافز ، جاءها المنبِّه ..

لقد لامست (اللهُ أكبر) أسماعَ العرب فأيقظتهم ..

وجاءت تربية رسول الله ﷺ فأحيتهم .. وجعلت حب المعالي هدفاً فتحفَّز المارد المسلم .. فإذا جيشه في الصِّين شرقاً ، وفي قلب فرنسة غرباً .

فدين يجعل العرب الذين كانوا ضائعين في جزيرتهم يفتحون العالم بعقيدة إخاء ومحبة ، إنسانية وعزّة .. ليس أفيوناً ـ قولاً واحداً ، غير قابل للنقاش ـ .. فلو كان الإسلام أفيوناً لما وصل به المسلمون إلى الصِّين والهند وأندونيسية ، ولا إلى قلب روسية وكل سيبيرية ، ولا إلى ثلثي القارة الإفريقية ..

ونقول : إن كلَّ عقيدة ، ولو أنها ادعت العلميَّة ، وجعلتها شعاراً براقاً ، وجعلت من أتباعها نسخاً « كربونيَّة » من عقل إنسان يخطئ ويصيب .. بل جعلتهم آلات انعدمت فيهم الرُّوحانيَّة .. يشقون ويتعبون ويحلمون بجنَّة موعودة ، وبفردوس منتظر ، بينهم وبينها اختلاف في الاتجاه قدرة مئة وثمانين درجة .. مثل هذه العقيدة ، ولو ادعت العلميَّة ، واتهمت غيرها بما اتهمت .. هي أفيون الشعوب .. والمصيبة أكبر عندما نعلم أنها غارقة في مخدراتها ونراها تنطق وهي بهذه الحال ، أن غيرها مُخدِّر ، وهي اليقظة العلمية ..

رحم الله العقاد ، عندما اطلع على فكر وفلسفة هؤلاء ، ثم كتب كتابه (**المذاهب الهدَّامة أفيون الشُّعوب**) !!؟!

☆ ☆ ☆

إسلام وجاهلية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّـــةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّـــاسِ تَـأْمُرونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ .. ﴾ .

[آل عمران : ١١٠]

☆ من روائع الإسلام موضوعيته في أحكامه ، حتى بحق أعدائه ومناهضيه ، لا يظلمهم ، ولا يقول ما ليس فيهم ، وإن قال ما فيهم ، فهو لا يبتغي في حواره تجريحاً ولا تشهيراً ، إنما يريد الوصول إلى حقيقة يؤيدها العقل الناضج ، ويقر بها الفكر النزيه ..

هذا سلوك الإسلام مع الّذين كفروا بالله ، ورفضوا دين الله ، وخاطب الإسلام المؤمنين به : ﴿ **وَلاَ تَسُبُّوا ٱلّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ فَيَسُبُّوا ٱللهَ عَدْوَاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ..** ﴾ ، [الأنعام : ١٠٨] ، وأخذ الإسلام يخاطب عقول الكافرين ، ويدعوهم إلى التفكير بالكون وبنظامه للوصول إلى الحقيقة : ﴿ **هُوَ ٱلّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَالحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللهُ ذَلِكَ إلاَّ بِالحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَومٍ يَعْلَمُونَ ، إنَّ في ٱخْتِلافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ في السَّمواتِ وَالأرضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ** ﴾ ، [يونس : ٥ ـ ٦] .

وخاطب عقولهم عندما تحدث عن أصنامهم الّتي يعبدونها : ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَالاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعَاؤُنا عِنْدَ ٱللهِ** ﴾ ، [يونس : ١٨] .

ودعاهم إلى التفكير عقليّاً بنبوّة محمد ﷺ : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾ ، [سبأ ٤٦] .

الإسلام دقيق في أحكامه ، يذكر ما لأعدائه ، ويذكر ما عليهم ، يذكر ما لهم لأنه ليس عدوهم في ذاتهم ، فهو جاء لخيرهم وهدايتهم وسعادتهم ، قد يعادي بعض عاداتهم ، أو نواحيَ من أخلاقهم ، أو أفكارهم الخاطئة ، ولكنه يذكر ما عليهم لتقويم الاعوجاج ، وتحقيق الكمال في الفكر ..

وهذه هي الخطوط العامة التي سلكها الإسلام عندما ناقش تقويم[1] العصر الجاهلي .

☆ ☆ ☆

سقت ما سبق مقدمة للردِّ على كلمة قالها صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) دلَّت على تعصُّبه وجهله ، وانحيازه إلى كل ما يمكن أن يقلِّل من شأن الإسلام ..

قال صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) : جاهليتكم خير من إسلامكم ، والجاهلية[2] عصرُ العرب الذهبي ، وقمّةُ مَجْدِ العرب .. وأوجُ قوتهم ..

قلت له يا أخ : « لو صُوِّر العقل لأضاء معه الليل ، ولو صُوِّرَ الجهل لأظلم معه النهار » ! الجاهلية خير من الإسلام ، كلمة أظلم معها النَّهار ، الجاهليَّة ،

---

(١) قوم الشيء (تقويماً) ، وليس (تقييماً) كخطأ شائع .

(٢) ورد لفظ الجاهلية في أربع آيات من آي القرآن الكريم :

- ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ** ﴾ ، [المائدة ٥٠] .
- ﴿ **يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ** ﴾ ، [آل عمران ١٥٤] .
- ﴿ **إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ** ﴾ ، [الفتح ٢٦] .
- ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى** ﴾ ، [الأحزاب ٣٣] .

وهي الفترة الواقعة من فجر التاريخ العربي حتّى البعثة المحمدية ، خير من الإسلام ؟! أين الدليل ؟

قال صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) : انتصر العرب في ذي قار من قبل اليرموك والقادسية .. وامتاز العربي بالنجدة والشّجاعة والكرم .. من قبل الإسلام ..

فصحت بصاحب (**غزوة ذات النطاقين**) : الله أكبر .. زادك الله علماً يا خطيب .. أهذا منتهى علمك ؟؟ وغاية أفكارك ؟؟

استمع لرأي الإسلام .. وأنصت لرأي التّاريخ الحق ، لعلك تستفيد ..

أولاً .. لم يكن الإسلام حرباً على العروبة ، يقول الله عزّ وجل :

﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً** ﴾ ، [طه ١١٣] .

﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ ، [يوسف ٢] .

﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً ..** ﴾ ، [الرعد ٣٧] .

﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينُ ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ ، [الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٥] .

﴿ **قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ ، [الزُّمر ٢٨] .

﴿ **حمٓ ، تَنزِيلٌ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ ، [فصلت ١ ـ ٣] .

﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ..** ﴾ ، [الشورى ٧] .

﴿ حمٓ ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، [الزُّخرف ١ ـ ٣] .

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، [الأحقاف ١٢] .

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ[1] لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ ، [الزُّخرف ٤٤] .

فالله عزّ وجلّ مجّد العرب .. لأنهم سيحملون الرسالة للعالمين ، فجعل القرآن الكريم بلغتهم ، وجعله شرفاً ومجداً لهم .

ثانياً .. لولم يكن في العرب من الأهليّة والقابليّة الكثير ، لما أنزل الله عليهم الإسلام ، وكرّمهم به .. فالأرض التي أنبتت الأشواك العالية ، أرض خصبة خيِّرة ، وهي نفسها التي أنبتت الطيبات عندما تعهدها مزارع ماهر نشيط .

لقد اختار الله العرب لحمل الرسالة .. فبها كان صلاحهم .. وبها عزّتهم ، وفيها كرامتهم وشرفهم ومجدهم .

فأعز الله العرب بالإسلام عقيدةً وفكراً ، وأعز الإسلام بالعرب فتحاً وانتشاراً .

ثالثاً .. أما أن نجعل من العروبة ديناً وفكراً .. فهذا مالا يرضاه الإسلام .. وأما أن نمجد العروبة أكثر مما تستحق لنغمط حق الإسلام ودوره في إحياء هذه الأُمة .. فهذا مالا نرتضيه ، وأن نجعل تاريخ الجاهليّة كتاريخ الإسلام ، فهذا تحيُّز ومغالطة تاريخيَّة فاضحة .. وأن نمجد موقعة ذي قار ونجعلها كاليرموك أو القادسيَّة أو نهاوند .. فهذا تمجيد بعيد عن التحقيق والتمحيص من ناحية ، ويحمل الطعن بذاتيتنا من ناحية ثانية .

---

(١) لَذِكْرٌ لَكَ : أي شرف .

في ذي قار[1] لا يمكن القول إن العرب تغلبوا على الفرس كدولة ، لأن (ذي قار) موقعة بين ثلاثة آلاف من العرب الذين كانوا تحت سيطرة الفرس ، مع ألفين من جيش الفرس في جانب ، وقبائل بكر بن وائل في جانب آخر .

و (ذي قار) وقعت وقد بُعِثَ النبيُّ الكريم ﷺ وأخبَرَ أصحابه بها فقال : « **اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي نُصِروا** » ... فأنصف النبيُّ ﷺ العرب ، وأخبر أصحابه بنصر العرب مغتبطاً مسروراً لنصرهم .

ونهاية الحديث الشريف تلفت النظر : « وبي نُصروا » .. أي ما رضي الله عزّ وجلّ أن يكون في عصر النبوة هزيمة للعرب على يد الفرس .. فببركة البعثة المحمديَّة ، وإكراماً لرسول الله ﷺ تمّ النصر للعرب في ذي قار !!

أما اليرموك .. فهي حشد لكل طاقات الروم ، والقادسيَّة حشد لكل طاقات الفرس .. لذلك كله ، لليرموك والقادسية أثرهما الحاسم ، ولم يكن لذي قار أثرها الحاسم ..

بعد اليرموك طويت دولة الروم من بلاد الشام ومصر ..

وبعد القادسية طويت دولة الفرس من العراق .

وبعد نهاوند طويت دولة الفرس كلها ..

وبعد (ذي قار) ماذا حدث ؟ وماذا تغير ؟ لقد بقي تهيب العرب من الفرس ، وبقيت استهانة الفرس بالعرب ، أما قال رستم[2] للمغيرة بن

---

(١) ذوقار : ماء لبكر قريب من الكوفة ، راجع (أيام العرب في الجاهلية) ، ٦ ـ ٣٩ ، وسببها رفض هانئ بن مسعود الشيباني تسليم ودائع النعمان بن المنذر إلى كسرى بعد أن قتل كسرى النعمان ، فأرسل كسرى جيشاً بقيادة إياس بن قبيصة ، فكانت المعركة عام ٦١٠ م ، وظل الحكم الفارسي المباشر قائماً في الحيرة بعد المعركة إلى أن حرَّرها المسلمون بقيادة خالد بن الوليد عام ٦٣٣ م .

(٢) قائد الجيش الفارسي في القادسية ، وهو من أبرز قادتهم .

شعبة[1] قبل القادسية ، « ارجعوا إلى بلادكم » قد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ماأصابكم من الجهد في بلادكم ، فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم ، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وثوبين ، وتنصرفون عنا ، فإني لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم »[2] .

وهل يمكن القول بأمانة تاريخيَّة : **إن العرب كانوا أقوى من دولة الفرس في ذي قار ؟!؟**

ولكن يمكن القول وبأمانة تاريخيَّة إن العرب بالإسلام أقوى من الدولتين مجتمعتين ، الفرس والروم ، لأَن المسلمين فتحوا جبهتين في اليرموك والقادسية في آنٍ واحدٍ .

☆ ☆ ☆

هذا .. ولماذا نذكر (ذي قار) بالفخر كلِّه ، ولا نذكر النزاع بين القبائل العربيَّة في الجاهليَّة ؟ ولقد وقعت بينهم حروب كثيرة ، أريقت فيها الدِّماء رخيصة غزيرة ..

أنذكر (ذي قار) ولا نذكر حرب البسوس[3] بين قبيلتي تغلب وبكر ابني وائل ؟ ولقد كانت حرب البسوس حرباً طاحنةً دامت أربعين عاماً بسبب ناقة !!

أتذكر (ذي قار) بالفخر كلِّه ، ولا نذكر حرب داحس والغبراء[4] بين عبس وذبيان ؟؟

---

(١) عندما قدم على رستم قبل المعركة بيوم واحد .
(٢) أوردنا القصة بتفاصيلها في كتابنا القادسيَّة (من سلسلة المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام) .
(٣) راجع (أيام العرب في الجاهلية) ، ط : دار إحياء الكتب العربية ، ١٤٢ ـ ١٦٩
(٤) راجع المرجع السابق ٢٤٦

لقد كانت حرباً طاحنةً بسبب رهان على فرسين ، دامت سنوات طويلة .

لماذا نذكر (ذي قار) بالفخر كلِّه ، ولا نذكر أيام الفُجَّار[1] ، بين كنانة وهوازن ، وبين قريش وهوازن ، وبين قريش وكنانة من طرف وهوازن من طرف آخر ؟

كيف نذكر (ذي قار) ، ولا نذكر استعمار الفرس للعراق واليمن ، واستعمار الروم لبلاد العرب في بلاد الشام وأطراف الجزيرة العربية ؟

وكيف نذكر الشجاعة في العربي الجاهلي ، ولا نذكر غزوه لأخيه ؟ وهل ضاعت هذه الشجاعة عندما جاء الإسلام ، أم وضعها في مجالها الصحيح ؟

وكيف نذكر شهامته ، ولا نذكر وأده للبنات ؟ وهل ألغى الإسلام شهامة العربي ، أم جعلها في مجالها الصَّحيح السَّليم ؟

وكيف نذكر نجدته ، ولا نذكر عبادته للأوثان[2] حيث تدني الفكر والعقل ؟ وهل محا الإسلام نجدة العربي ، أمْ جعلها في مجالها الصَّحيح السَّليم المناسب ؟

كم مثل عمر عاش قبل الإسلام ثم مات ومات اسمه وذكره معه ، بينما خُلِّد عمر بالإسلام ؟

كم من مثل سعد عاش في الجاهلية ثم مات فانطفأ ذكره ، بينما سعد بقي ذكره بالإسلام حيّاً ؟

---

(١) (أيام العرب في الجاهلية) ٣٢٢ وما بعدها .

(٢) كان يعبد أحدهم صنماً من تمر مساءً ، وعندما يصبح جائعاً يأكله ، وخاطب أحدهم صنماً كان يعبده ، ورأى الثعلبان (الثعلب) قد بال عليه صباحاً :

أربٌّ يبولُ الثعلبانُ برأسهِ ؟ لقدْ ذلَّ منْ بالتْ عليهِ الثعالبُ

ومَنْ طارقٌ لولا الإسلام ؟
ومن الغافقي لولا الإسلام ؟
ومن قتيبةُ لولا الإسلام ؟
ومن صلاح الدين لولا الإسلام ؟
ومن الملك المظفر قُطُز لولا الإسلام ؟!

« جاهليتكم خير من إسلامكم » أليس هذا كلاماً سخيفاً لفكر ضحل سخيف ؟..

أين علوم العرب في الجاهلية ؟ القيافة[1] ، العرافة[2] ، الكهانة[3] ، والتنجيم[4] ، والأنساب[5] ـ وهي أرقى ماعرف العرب في جاهليتهم ـ من علوم العرب في الإسلام وقد صارت بغداد عاصمة العلم في العالم كله ، وصارت قرطبة جوهرة العالم ..

إن تاريخ العلوم عند العرب في الجاهلية يقرر تمسكهم بالخرافة والأوهام .. وفي الإسلام وضع العرب أسس البحث العلمي لكل فروع العلوم[6] ..

إذا كانت جاهليتكم خيراً من إسلامكم .. فلِمَ إذن نُذكِّر في الملمات أبناءنا

---

(١) القيافة : اتّباع الأثر ، راجع القاموس المحيط فصل القاف باب الواو والياء ، ومختار الصحاح مادة (ق وف) .
(٢) العرافة : علم الغيب ؛ راجع مختار الصحاح مادة (ع ر ف) .
(٣) الكهانة : القضاء بالغيب ، انظر القاموس المحيط ـ فصل الكاف باب النون ، وأساس البلاغة مادة (كهن) .
(٤) التنجيم : الاطّلاع والعلم بالأشياء الخفية بالاطّلاع على النجوم ، مختار الصحاح مادة (ن ج م) .
(٥) الأنساب : أي العلم بها ، راجع مختار الصحاح مادة (ن س ب) .
(٦) راجع (مصطلح التاريخ) للدكتور أسد رستم ، المكتبة العصرية ـ صيدا . و (شمس العرب تسطع على الغرب) لزيغرند هونكه .

بعظمائهم في صدر الإسلام ، ولا نُـذكِّرهم بعنترة وشيبوب وسيف بن ذي يزن وأبي جهل وأبي لهب ؟؟

إن كلمة عرب وجاهلية .. اسمان لجماعة وفترة ، كقولنـا زيـد أو عمر ، وقرن تاسع ، أو سنة كذا .. وكلمة زيد أو عمر لا تحدد فكرهما أو عقيدتها .

وكلمة إسلام ، اسم لدين حُدِّدت عقيدته ، وحُدّد فكره ومنهجه .. فلا مجـال للمقارنة مطلقاً بين إسلام وجاهليَّة !!

وكلما ضعف الإسلام في نفوس أهلـه ، تظهر عصبيتهم وجـاهليتهم كما حـدث بين القيسيَّة واليمانيَّة في الشَّـام والأنـدلس .. ويصبح بـأسهم بينهم . ولقـد لاحـظ ذلك ابن خلدون وعندمـا سجّل ذلـك في مقـدمتـه اتهم بـالشعوبيَّـة ، وهو العربي الحضرمي !!

فالعرب بلا إسلام ، عرب النِّزاع والعصبيَّة ..

والعرب بالإسلام ، عرب العزَّة والفخار والمجد ..

والتاريخ خير شاهد لمن يتصفحه .

لقد جاء الإسلام فجعل دراسة سير الأبطال ديناً وعبـادةً ، فجعل لهـا آيـات مطولـة في كتـاب الله .. **فربّى جيـلاً فيـه صبر نـوح ، وحكمـة يحيى ، وعفـاف يوسف ، وعزيمة موسى ، وروحانيَّة عيسى ، وفطنة سليمان ، وصناعـة داود ، وحجة إبراهيم .. وكمال سيد المرسلين محمد ﷺ .**

لقد فقه العربي بالإسلام .. فصار عدوّه الكفر والشرك والظُّلم والجهل .. بعد أن كان عدوّه أخوه في العروبة ..

لقد فقه العربي بالإسلام ، فصار عقله وقلبه لا يعبـد إلاَّ الله عزَّ وجل ، بعـد أن كان إلهه صنماً من تمر يعبده مساءً ويأكله صباحاً .

لقد فقه العربي بالإسلام ، فحفظ تراث الإنسانيّة الحضاري والعلمي ، بعد أن كانت الخرافة تأكل خياله .

وأخيراً نسأل : فتوحات العرب التي نفخر بها اليوم متى كانت ، أفي الجاهلية أم في الإسلام ؟

وعلوم العرب التي يفخر بها العالم كله ، وكانت سبب نهضة أوربة ، وبالتالي العالم كله ، متى كانت ؟ أفي الجاهلية ، أمْ في الإسلام ؟

وحدة العرب ، متى كانت في الجاهليّة ، أمْ في الإسلام ؟

« جاهليتكم خير من إسلامكم ! » . قول حاقد على تراث أُمتنا ، يطعن ذاتيتنا عن خبث وسوء قصد ، أو عن جهل وضحالة ثقافة وفكر .

« جاهليتكم خير من إسلامكم ! » .. قول يظلم معه النهار ، لمخالفته الحقيقية ، ولما يحمل في طياته من باطل ..

ياصاحب (**غزوة ذات النطاقين**) .. إننا مسلمين نحيي عروبة عمر ، ولا نحيي عروبة أبي جهل ، إننا نحيي عروبة عليٍّ ، ولا نحيي عروبة أبي لهب .. لأن الإسلام منح عروبة عمر روحاً وفكراً ، وأعطى عروبة عليٍّ علماً وحضارة .

ياصاحب (**غزوة ذات النطاقين**) .. إننا نحيي عروبة سعد وخالد وأبي عبيدة .. ولا نحيي عروبة عنترة وشيبوب .. لأن الإسلام أعطى عروبة سعد وخالد وأبي عبيدة حياةً وفتوحاً وحضارةً ، هذا ، وَعُروبة أبي جهل وأبي لهب وعنترة وشيبوب لم تجعل العروبة قبل الإسلام شيئاً مذكوراً .

☆ ☆ ☆

عقوبة موسومة بالقسوة

بِسْمِ اللهِ الرَّحمن الرَّحيم
﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .
[البقرة ١٧٩]

قال صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) : إن عقوبة قطع يد السَّارق ، ورجم الزَّاني المحصن ، لا تتفق مع ما وصلت إليه الإنسانيَّة والمدنيَّة في عصرنا الحاضر ..

إن عقوبة قطع يد السَّارق ، ورجم الزَّاني المحصن ، عقوبة قاسية وحشيَّة ، تتصف بالبدائيَّة .. إنها لا تصلح لعصر المدنيَّة والتَّقدم ..

قلت لصاحب (**غزوة ذات النطاقين**) : إذا قال مسلم فاهم للإسلام ملتزم به ، نريد إسلاماً ، ففيه عِزَّة هذه الأُمة وذاتيتها الحقيقية .. تسارع يا صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) ـ أنت وأمثالك ـ إلى القول : هل ستقطعون يد السارق ، وترجمون الزَّاني المحصن ؟ وكأنَّ الإسلام هو ذاك فقط .. وكأننا إذا أردنا أن نطبق الإسلام نحمل سيفاً لقطع يد السارق فقط .. وكل شيء قد طُبِّق وَصَلُح ، أو نحمل حجارة وننتظر في ساحة المدينة حتى نرجم زانياً مُحْصَناً ، عندها فقط يطبق الإسلام !!

يا صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) .. اعلم أنت وأمثالك أن النظام

الإسلامي كلٌّ متكامل[1] ، فلا تفهم حكمة الجزئيات التشريعية فيه حق فهمها إلاَّ أن ينظر في طبيعة النظام وأصوله ومبادئه وضماناته . وكذلك لاتصلح هذه الجزئيات فيه للتطبيق ، إلاَّ أن يؤخذ النظام كاملاً ، ويعمل به جملةً ، أما اجتزاء حكم من أحكام الإسلام ، أو أخذ مبدأ من مبادئه في ظل نظام ليس كله إسلاميّاً ، فلا جدوى من ذلك . ولا يعد الجزء المقتطع منه تطبيقاً للإسلام ، لأن الإسلام ليس أجزاء وتفاريق ، الإسلام هو نظام متكامل ، يشمل تطبيقه كل جوانب الحياة .

هذا بصفة عامة ، أما بالنِّسبة لموضوع السَّرقة فالأمر لا يختلف .

حَدُّ السَّرقَة

إن الإسلام يبدأ بتقرير حق كل فرد في المجتمع الإسلامي (في دار الإسلام) في الحياة ، وحقه في كل الوسائل الضرورية لحفظ الحياة ، من حق كل فرد أن يأكل ، ويشرب . ويلبس ، وأن يكون له بيت يسكنه ويؤويه ، ويجد فيه السَّكينة والراحة .

ومن حق كل فرد على الجماعة ، أن يحصل على هذه الضروريات أوّلاً عن طريق العمل والكسب مادام قادراً عليه .. أو من نفقة أُسرته أو حَيِّه أو بيت المال .. إذا كان كسبه من عمله لا يكفي لضرورياته .

والإسلام كذلك يتشدّد في تحديد وسائل جمع المال ، فلا تقوم المِلْكيَّة الفرديَّة فيه إلاَّ من حلال ، ومن ثم لاتثير الملكية الفردية في المجتمع المسلم أحقاد

---

(١) رجعنا في هذا البحث إلى الكتب الثلاث التالية بشكل رئيسي :

☆ التَّشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي للشهيد عبد القادر عودة .

☆ ظلال القرآن : للشهيد سيد قطب .

☆ التفسير الحديث للأستاذ عزة دروزة .. مع التفاسير التالية : زاد المسير ، ابن كثير ، الدر المنثور ، الطبري ، الخازن ..

الذين لا يملكون ، ولا تثير أطماعهم في سلب ما في أيدي الآخرين .. وخاصة أن النظام يكفل لهم الكفاية ولا يدعهم محرومين .

والإسلام يربّي ضمائر الناس وأخلاقهم ، فيجعل تفكيرهم يتجه إلى العمل والكسب الحلال ، وينفي من تفكيرهم السَّرِقة والكسب عن طريقها ، وإذا لم يوجد العمل ، أو لم يكفِ لتوفير ضرورياتهم ، أعطاهم حقهم بالوسائل النظيفة الكريمة .

وإذن .. فلماذا يسرق السّارق في ظل هذا النظام ؟ إنه لا يسرق لسدّ حاجة ، إنما يسرق للطمع في الثَّراء من غير طريق العمل ، والثَّراء لا يطلب من هذا الوجه الذي يروّع الجماعة المسلمة في دار الإسلام ، ويحرمها الطمأنينة التي من حقها أن تستمتع بها .

إذا وفر الإسلام في نظامه المتكامل ، ما يدفع خاطر السَّرقة عن كل نفس سوية ، بضمان العيش والكفاية لأهل دار الإسلام على اختلاف مذاهبهم ، وضمن التربية والتقويم ، وضمن العدالة في التوزيع .. فإذا سرق السّارق بعد ذلك كله ، إذا سرق وهو مكفي الحاجة ، متبين حرمة الجريمة ، غير محتاج لسلب ما في أيدي الآخرين ، لأن الآخرين لم يَغْصِبُوا أموالهم ولم يجمعوها من حرام ، إذا سرق في مثل هذه الأحوال ، فلا ينبغي لأحد أن يرأف به متى ثبتت عليه الجريمة ، لأنه يسرق ولا عذر له .

أما حين توجد شبهة من حاجة أو غيرها ، فالمبدأ العام في الإسلام هو درء الحدود بالشبهات .

والذي يراجع التفاسير[1] يجد بيانات متنوعة توضح أحكام القطع ، أهمها :

١ ـ إنّ حَدّ السَّرقة لا يقام إلاّ على العاقل البالغ ، وهذا أمر طبيعي ، لأن

---

(١) (التفسير الحديث) للأُستاذ دروزة .

العقل والبلوغ ، هما اللذان يجعلان الإنسان محلاً للتكليف .

٢ ـ ذهب بعض أئمة الفقه إلى اعتبار النِّصاب الأدنى ماقيمته ربع دينار ، أو ثلاثة دراهم ، وآخرون ذهبوا إلى اعتبار النِّصاب الأدنى ديناراً أو عشرة دراهم ، والمتبادر : أن النِّصاب الأدنى سواء أكان ربع دينار أم ديناراً ، إنما حُدِّد حسب ظروف البيئة المعيشيَّة ، وهذا يورد على البال سؤالاً ، عما إذا كان يصح أن يكون النصاب عرضةً لتقدير ولي الأمر في حالة تغير الظروف والقيم وتطورها ، ويميل بعض العلماء إلى الإيجاب .

٣ ـ والعلماء متفقون على أن القطع إنما يكون في سرقة مال مُحْرَز ، أي موضوع في مكان من العادة أن يعتبر حِرْزاً ، ومسوَّر عليه ، ولو لم يكن عليه حارس ، ولا يوجبون القطع على من أخذ شيئاً موضوعاً في مكان غير محرز ، ولا حارس عليه ، أو بهيمة في بريَّة لاراعي لها ، ويظهر أنهم اعتبروا أن مثل ذلك لا يتصف بوصف السَّرقة ، ولا يخلو هذا من وجاهة ، لأن آخذه قد يكون أخذه على أنه مهمل متروك .

٤ ـ وهناك من أسقط القطع عن جاحد المتاع المستعار ، أو جاحد الأمانة ، أو الَّذي وجد شيئاً بطريقة الاختلاس العياني ، استناداً إلى حديث رواه أصحاب السُّنن عن جابر ، جاء فيه : « **ليس على خائن ولا منتهب ولا مختلس قطع** » . وعلَّلوا حكمة ذلك بإمكان استرداد المأخوذ خطفاً أو نهباً أو عاريةً بالبيِّنة .

٥ ـ العقوبة تحمل معنى التعزير[1] حتى يرتدع السَّارق ، ويكون في تعزيره عبرة لغيره ، وقد أوجب العلماء بناءً على ذلك تعزير السَّارق عندما يسرق ما هو

---

(١) التعزير : ضرب دون الحد لمنع الجاني من المعاودة وردعه عن المعصية . راجع لسان العرب ، ٥٦١/٤ ، ومختار الصحاح ٣٦٧

أدنى من النِّصاب من المال المحرز ، وهذا حق .. فالجريمة مهما بلغت لا يجوز أن تذهب بدون عقوبة .

٦ ـ وحكم السَّارق الذي يسرق عن عوز لسدّ جوعه ، أو جوع عياله إذا ماثبت ذلك لدى الحاكم معروف .. فعمر رضي الله عنه لم يقطع في عام القحط عام الرَّمادة[١] .

لقد حرَّم الله أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به ، واستثنى المضطر في حالة الجوع وخطره ، وعفا عنه ، فلا قطع في الحالات الاضطرارية التي لم تصدر عن صاحب حرفة .. لأن السَّارق ماقام بعمله بدافع الإجرام ، ونفسية المجرم ، إنما بقصد درء الهلاك عن النفس ، في ظروف المجاعة الطارئة .

٧ ـ ورأى بعض العلماء ـ ولهم وجهة نظرهم القيمة ـ أن التَّوبة أو العفو قبل القطع يسقطان عن السَّارق القطع ، وهناك من قال بالسقوط قبل رفع الأمر للحاكم والقدرة عليه ، قياساً على المحارب الذي أذنت الآية[٢] بقبول توبته إذا تاب قبل القدرة عليه .

ولقد نبَّه الذين يقولون بسقوط الحد بالتوبة أو العفو ، على أن ذلك ليس من شأنه إسقاط الغرامة عن السَّارق ، وهذا رأي وجيه ، فالآية : ﴿ **فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ ، [المائدة : ٣٩] ، تنطوي على ذلك ، بالاضافة إلى معنى إصلاح النفس بالتوبة والنَّدم .

٨ ـ ومما ذكره الخازن ، أن لا قطع على سرقة مال للسَّارق فيه شبهة ،

---

(١) عام الرَّمادة : سنة ١٨ للهجرة حصل في المدينة والحجاز قحط عظيم دام تسعة أشهر ، فسميت هذه السنة (عام الرَّمادة) لأن الريح كانت تسفي تراباً كالرماد ، أو لأن الأرض صارت سوداء مثل الرَّماد ..

(٢) ﴿ إِلاَّ ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ، فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٤] .

كسرقة العبد من مال سيده .. أو الابن من أبيه .. فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه أتى بغلام سرق من سيده فلم يقطعه[١] .

وعمر رضي الله عنه هو القائل : « **لأن أُعطِّل الحدود في الشبهات خير من أن أقيمها في الشبهات** »[٢] .. وكلمات عمر هذه تطابق ما رواه أبو يوسف في الخَرَاج عن عروة عن السَّيِّدة عائشة رضي الله عنها ، قالت : « **ادرؤوا الحدود عن المسلمين بالشبهات ما استطعتم ، فإذا وجدتم للمسلم مخرجاً فخلُّوا سبيله ، فإن الإمام لأن يخطئ في العفو ، خير له من أن يخطئ في العقوبة** »[٣] .

وآراء الفقهاء في الحدود والقصاص ، لم تكن تخفيفاً من قسوة هذا الحكم وغيره ، وإنما هو حد ماض لا يخرج عليه إلا من ظلم نفسه ، فإن استوثقوا له بتوافر شروطه الموجبة نفذوه ، مستلهمين فيه روح الدِّين ، وكلمة التشريع .

وتجعل القوانين الحبس عقوبة السرقة ، وهي عقوبة قد أخفقت في محاربة الجريمة على العموم ، والسرقة على الخصوص . والعلة في هذا الإخفاق ، أن عقوبة الحبس لا تخلق في نفس السَّارق العوامل النفسيَّة التي تصرفه عن جريمة السَّرقة ، لأن عقوبة الحبس لا تحول بين السَّارق وبين العمل إلا مدَّة الحبس . ومدة الحبس تُكْسِبُ السَّارق فنوناً جديدة ، وتعلِّمه ما ينقصه من طرق وأساليب !

هذا .. واسم العقوبة مشتق من العقاب ، ولا يكون العقاب عقاباً إذا كان موسوماً بالرَّخاوة والضعف ، بل يكون لعباً وعبثاً ، أو شيئاً قريباً من هذا .. فالحزم والشدة لابد أن تتمثل في العقوبة حتى يصح تسميتها بهذا الاسم !!

☆ ☆ ☆

(١) الخَرَاج ، ٢٠٥ . ورد أن عبد الرحمن بن حاطب سرق له غلمان ناقة ، وعفى عنهم عمر .
(٢) الخَرَاج ، ١٦٥ .
(٣) الخَرَاج ، ١٦٥ .

حَدُّ الزِّنَا[1]

هذا من ناحية .. ومن ناحية ثانية ، فإن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ، ولا يستقذرها ، إنما ينظمها ويطهرها ويرفعها عن المستوى الحيواني .

الإسلام لا يشدد في عقوبة إلاَّ بعد أن يحقق الضمانات الوقائية المانعة من وقوع الفعل ، فالإسلام منهج حياة متكامل ، لا يقوم على العقوبة ، إنما يقوم على توفير أسباب الحياة النظيفة ، ثم يعاقب بعد ذلك من يدع الأخذ بهذه الأسباب ، ويتمرغ في الوحل طائعاً غير مضطر .

الإسلام يعاقب المتبجِّحين بالجريمة ، الَّذين يرتكبونها بطريقة فاضحة مستهترة فيراها الشهود[2] ، أو الَّذين يرغبون في التطهر بإقامة الحَدِّ عليهم ، كما

---

(١) الزنا : يمد ويقصر ، زنى الرجل يزني زنى مقصورة ، وزناء ممدود ، راجع لسان العرب ، ٣٥٩/١٤ وما بعدها .

(٢) وحكمة كون الشهود أربعة تمام الستر ، لأنه قلما يتفق وجود أربعة شهود على جريمة سرية . ومن أحكام الزنا :

١ ـ لابد أن تكون الشهادة من الأربعة في مجلس واحد ، وإلاَّ كانوا قاذفين فيحدون حد القذف ، لقول عمر رضي الله عنه : لو جاؤوا بمثل ربيعة ومضر فرادى لجلدتهم .

٢ ـ ولو كان أحد الشهود الزوج ، قبلت شهادته لأنه يتضرر بزنى امرأته ، لإقراره بزناها .

٣ ـ ويستفسر القاضي الشهود الأربعة عن نفس الزنى وحاله وموضعه ودقته ، وعن المرأة التي زنى بها ، وحكمة الاستفسار رفع الاحتمال ، ولتمام الاحتياط ، ولعله يندرئ الحد .

٤ ـ وإن تأخر الشهود عن الرجم أو أحدهم سقط الحد لأن امتناعهم دليل رجوعهم ، فكان في البدء بهم احتيال للدرء ، وكذا لو خرج الشهود أو أحدهم عن أهلية أداء الشهادة قبل الاستيفاء ، بل اعتراهم أو أحدهم جنون أو عمى أو قذف أو ارتداد .

٥ ـ ولو أقر أحد الزانيين وأنكر الآخر لا يجب الحد عليهما معاً ، لأن الزنى فعل مشترك بينهما ، فانتفاؤه عن أحدهما يوجب شبهة الآخر ، والحد يدرأ بالشبهة .

٦ ـ ولو شهد أربعة على امرأة بالزنى ، ووجدت بكراً ، فلا حد على الزاني ولا المرأة المزني بها ، ولا على الشهود لتكامل عددهم ، ولو وجدت المرأة ثيباً ولكن الشهود كانوا فسقة فلا حد أيضاً على أحد ، لأن في شهادتهم قصوراً لتهمة الكذب ، فلا حد على الزاني والزانية .

وقع لماعِز والغَامِدِيَّة ، وقد جاء كل منهما يطلب من النبي ﷺ إقامة الحَدِّ عليه ، ويلح في ذلك ، على الرغم من إعراض النبي الكريم مراراً ، حتى بلغ الإقرار أربع مرات ، ولم يعد بد من إقامة الحد ، لأنه بلغ إلى الرسول بصيغة مستيقنة لا شبهة فيها .

الزِّنا .. وصفه القرآن الكريم بصفتين : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾ ، [الإسراء : ٣٢] .. والواقع والعلم يفسّران لنا لِمَ كان الزِّنا فاحشة ، وأنه ساء سبيلاً :

١ ـ الزِّنا قتل للجنين قبل أن يتخلّق ، أو بعد أن يتخلّق ، قبل مولده أو بعد مولده ، فإذا تُرِكَ الجنين للحياة ، ترك في الغالب لحياة شريرة ، أو حياة مهينة .. ومن يعارض الطّلاق اليوم عند تعذّر استمرار الحياة الزوجية ، يقول : الأولاد من لهم ؟! أين حنان الأُمِّ وعطف الأَبِ لهم ؟! وعجباً لهؤلاء ، فهم أنفسهم ينسون أن لا حنان ولا عطف في الملاجئ وروضات اللُّقَطاء !! .

٢ ـ والزِّنا قتل للجماعة من جانب آخر ، إذ إن سهولة قضاء الشهوة عن طريق يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها ، ويجعل الأُسرة تبعة لا داعي إليها . وعلماء الاجتماع أول من يعلم ، أن الأُسرة هي المحضن الصالح للفراخ الناشئة ، لا تصح فطرتها ، ولا تسلم تربيتها إلاّ فيها[1] .

فما ذنب اللُّقطاء عندما يحرمون هذا المحضن الصالح ؟ ومن الطريف .. أن مجتمعاً يكثر فيه اللُّقطاء ، مجتمع تشيع فيه الجريمة ، ولذلك فإن أول ما يدرس في المجرم ، تدرس حياته ، وبيئته الأُسريّة .

---

(١) في الأُسرة .

٣ ـ وما من أمة تفشت فيها الفاحشة ، إلاّ صارت إلى انحلال[١] ، قاعدة صحيحة ، منذ التاريخ القديم ، إلى العصر الحديث ، وقد يغر بعضهم ببعض الدول التي تملك القوة الماديَّة اليوم ، والَّتي تفشت الفاحشة فيها ، ولكن آثار هذا الانحلال ظهرت في أكثر من بلد أُوربي كفرنسة والدول الإسكندنافية ، فما لا شكّ فيه ، أنها شعوب كَهْلة ، بمعنى أن عدد السكان الذي تجاوزوا سن الشباب والفتوة ، يفوق عدد الشباب والفتيان والأطفال . أما في الأمم الفتية كالولايات المتحدة ، فإن آثار الفحش بدأت تظهر بوضوح ولكن ببطء ، بسبب حداثة هذا الشعب ، واتساع موارده .

فالدول كالشّاب الذي يسرف في شهواته ، فلا يظهر أثر الإسراف في بنيته سريعاً ، ولكنه عندما يدلف إلى الكهولة ، فلا يقوى على احتمال آثار السن وتقدمه ، كما يقوى عليها الطاهرون من أنداده ، لذلك قال المؤرخون : « **بدأت رومة تنهار ، عندما رتع جيشها في ملاهي وحانات أنطاكية عند فتح الشرق** » ، **وقالوا : « إن ملاهي أنطاكية أفقدت الفضيلة من رؤوس الجند الرومان »** .

٤ ـ الأمراض الجنسيَّة التي تشاهد اليوم في كل مجتمع تشيع فيه الفاحشة ، لا تؤذي صاحبها فقط ، فهو بعدما تنتهي فترة طيشه ، ويميل بفطرته وبتحكيم عقله لتكوين أُسرة ، سيجد أثر الأمراض الجنسيَّة في نسله ، فالأطباء يقررون ، أن تشوهات الجنين ، تبقى حتى الجيل الرابع ، فما ذنب الجنين المشوه ؟! .

---

(١) لذلك كانت عقوبة الزنى عند العبرانيين الرجم ، أما الهنود فعقاب المرأة أن تترك للكلاب الجائعة تأكلها حية ، ويحرق شريكها في الجريمة ، وقدماء المصريين عاقبوا الزاني بالقتل ، وأغرق الآشوريون الرجل الزاني إذا اشتكت زوجه رسمياً ، وحكم الفرنسيون القدماء على الزانية بالحبس في أحد الأديرة ...

(موسوعة القرن العشرين ، ٦١٢/٤) .

٥ ـ الفاحشة تؤدِّي إلى نتيجة خطيرة ، إنَّها تؤدّي إلى شيوع البرود الجنسي ، وبالتالي إلى انتشار الشذوذ الجنسي ، ولقد ذكر الأستاذ (بيتريم ساروكين) مدير الأبحاث بجامعة (هارفارد) في كتابه (الثورة الجنسيَّة) ، أن أمريكة سائرة بسرعة إلى كارثة في الفوضوية الجنسيَّة ، كما قرر : أن أمريكة متجهة إلى الاتجاه نفسه الذي أدى إلى سقوط الإمبراطورية الإغريقية ، ثم الإمبراطورية الرومانية[1] ...

هذا .. والمرأة التي تمتهن الفحش ، لا تضر نفسها فقط ، إنما تضر العفيفات الطاهرات من بنات الأُمَّة ، اللَّواتي فطرن على حب تكوين عش سعيد ، يمرح فيه أطفال أبرياء ، مكلَّلون بعطف وحنان ورعاية الأبوين .. فالعاهرة لا تضر نفسها فقط عندما يفوتها قطار العمر ، ويعزف عنها أمثالها من الجنس الآخر عند كبرها وهرمها .. فتندم على أيام غوايتها ، وتأخذها عاطفة الأمومة إلى حسرة تعصر قلبها[2] ..

فالإسلام وهو يضع الرجم على الزاني المحصن ، عقوبة صارمة حازمة لتلك الفعلة المستنكرة الشائنة ، لم يكن ليغفل الدوافع الفطرية أو يحاربها .. ولم يكن يحاول أن يوقف الوظائف الطبيعية التي ركَّبها الله في كيان البشر ، وجعلها جزءاً من ناموس الحياة الأكبر ... إنما أراد الإسلام محاربة الحيوانيَّة التي لا تفرِّق بين جسد وجسد ، أو لا تهدف إلى إقامة بيت ، وبناء عش ، وإنشاء حياة مشتركة .. أراد الإسلام أن يقيم العلاقات الجنسيَّة على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية

(١) الخبر عن (المصور العدد ١٦٨٩ ، صفحة ٤) .

(٢) جاء في دائرة معارف لاروس تحت عنوان (الزنى) هذه العبارة : « بالزنى يتسرب إلى الأُسرة الخيانة والشقاق ، وتُسْلَبُ الأمُّ احترام أولادها ، والأولاد حب وعناية أبيهم ، والأب غبطة الأبوة ، ولذلك نرى جميع قوانين البشر تعاقب على الزنى » ، راجع (دائرة معارف القرن العشرين ٦١٣/٤) .

السامية ، مع روابط مشتركة ، وآمال مشتركة ، ومستقبل مشترك ، يلتقي في الأبناء ومستقبلهم وحياتهم ، ويتقابل في الجيل الجديد الذي ينشأ في العش المشترك ، الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان .

ومن هنا شدد الإسلام في عقوبة الزنا بوصفه نكسة حيوانية ، تذهب بكل هذه المعاني ، وتطيح بكل هذه الأهداف ، وترد الكائن الإنساني مسخاً حيوانياً .. كل همه إرواء جوعه في لحظة عابرة ... ليس وراءها عاطفة حقيقية راقية ، لأن العاطفة الصادقة تحمل طابع الاستمرار ، وهذا ما يفرقها عن الانفعال المنفرد المتقطع .

☆ ☆ ☆

وهكذا .. ينبغي أن تفهم حدود الإسلام ، في ظل نظام متكامل يضع الضمانات للجميع ، لا لطبقة على حساب طبقة ، **والإسلام يتخذ أسباب الوقاية ، قبل أن يتخذ أسباب العقوبة ، وهو لا يعاقب إلاّ المعتدين بلا مبرر للاعتداء .**

وماذا يقول من يرى أن القطع والرجم موسومان بالقسوة ، إذا عرف أن روسية قد جعلت عقوبة الإعدام لكل من ينشر غسيله على شرفات الطرقات الرئيسة ؟ العقوبة على هذا الذنب الذي قد لا يكون ذنباً مطلقاً ! هي الإعدام ، فتصوَّر ؟!

وقديماً قالت العرب مثلاً رائعاً وجيهاً : (**من أحرق عقرباً ، طرد برائحة حريقها عقارب ذلك البيت**) ..

فالعقوبة الحاسمة في الإسلام ، لمنفعة الجماعة ، وهي علاج للنفوس الآثمة الجامحة ، وردع لنفوس تكاد تأثم أو تجمح ... كل ذلك .. كي تعيش الأُمّة آمنة مطمئنة ، سليمة البنيان .

انتصار واهن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
* ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ ٱلْوَارِثِينَ ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ .
[القصص ٥ ـ ٦]

قال صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) : ما انتصر العرب على الروم والفرس إلاَّ بعد قتالٍ مَرير بينهما ، فالمسلمون قهروا دولتين واهيتين ضعيفتين !!

قلت : يا صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) ، قال برناردشو : « **لا فائدة من إيصاد الإصطبل ، إذا سُرِق الحصان** » ، وأنا أقول : لا فائدة من شباب ـ في أيَّة أُمَّة ـ إذا ضاعت معالم شخصيته ، ولا فائدة من أُمَّة قطعت ارتباطها بتاريخها ، بل .. ولا فائدة من استقلال إذا سُرِقت أو اضمحلت الذاتيَّة ..

إنك وأمثالك ـ يا صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) ـ بعد فَقْدِ ذاتيتكم الحقيقيَّة ، وانقطاع ارتباطكم بتاريخكم ورجالاته ، وفكره وحضارته النابعة من أرضه ، لا غرابة أن نسمع منك ما نسمع .

إنك وأمثالك تتقنعون وتتفننون باختراع التهم والافتراءات ، حتى لو أضحت سخيفة واهية ، يخالفها العلم والواقع .

يا صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) اسمع وتفكَّر :

١ ـ انتصر المسلمون في الجزيرة العربية وهم قِلَّة ، على إخوانهم وأبناء عمومتهم

وهم كثرة .. المسلمون في بدر[1] ٣١٣ مجاهداً ، وقريش مع إمكاناتها ألف مقاتل .. فمن انتصر ؟.

ولمن كان النصر في حروب المسلمين ضد المتنبئين الكذابين أيام الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وقد كان المتنبِّئون كثرة ساحقة ، والمسلمون قلة ؟.

فضمن الجزيرة العربية ، البنية الجسديَّة واحدة ، والظروف واحدة .. فمن يقول أيضاً إن المسلمين انتصروا على الفرس والروم ، لأن المسلمين أبناء صحراء شحذت بخشونتها عضلاتهم .. بينما أبناء الروم والفرس أبناء نعيم ورفاه .. يكفينا القول لدحض ذلك .. إن العرب انتصروا على أضعاف عددهم ضمن الجزيرة ، حيث البيئة واحدة ، والظروف واحدة !!

٢ ـ في اليرموك .. حيث تداعت أركان دولة الروم في بلاد الشام .. إن كان جيش الروم ضعيف واهن .. ألا يكفيهم أن مئة ألف عربي متنصِّر كانوا معهم في المعركة ؟!

هذا من ناحية .. ومن ناحية ثانية .. فإنَّ انتصار ٣٦ ألف مسلم على ربع مليون رومي وعربي متنصِّر يُعَدُّ في ذاته معجزة .. فالانتصار لم يكن لجيش على جيش يكافئه في العَدد والعُدد .. إنَّ النصر تَمَّ لجيش كان فيه الواحد يقابل سبعة من أعدائه .. فتصور !!

٣ ـ ترتيبات الفرس والروم عريقة وإمداداتهم وعتادهم عظيمان .. وهما يحاربان في أراضيها وضمن ديارهما .. بينما يحارب المسلمون في أصقاع بعيدة عن عاصمتهم .. وإمداداتهم تمرات معدودات .. وعتادهم سيف أو رمح ليس غير ..

ومن يدرس اليرموك ، أو القادسية ، أو نهاوند .. يجد خطة عسكرية مدروسة روميَّة أو فارسيَّة .. مع قادة لهم خبرة سابقة ، وتجربة عريقة ..

---

(١) بدر الكبرى : ٢ هـ .

بينما كان أكثر القـادة المسلمين من غير تجربـة سـابقـة ، ينتقيهم عمر رضي الله عنه ، بحاسَّةٍ غريبة .. فيعهد إلى رجلٍ مغمور بجيش سيخوض معركـة حـاسمـة ، وتصح فراسة عمر ، فيكسب هذا القائد النصر وبـأقل خسـائر .. وأكبر مثـال على ذلك سعد بن أبي وقاص قائد القادسية ، والنعمان بن مقرّن المزني قائد نهاوند .

٤ ـ لم يحـارب المسلمون الروم ثم الفرس .. بل فتحوا جبهتين في آن واحـد .. حاربوا في اليرموك ، والقادسية ، ثم في نهاوند ومصر في آنٍ واحد ..

لقـد حـاربـوا دولتين كل واحـدة منها أغنى منهم بـالرجـال والمـال والخبرة السَّـابقـة ، وهنـا تكمن عظمـة وروعـة الفتوحـات الإسلاميـة ، حيث تتجلى قوة الإيمـان .. فلم يخض المسلـمون معركـة واحـدة كان عـددهم وعتـادهم فيهـا أكثر من عدوِّهم .. والعكس صحيح .

٥ ـ لماذا نقول إنَّ الروم والفرس قـد أُنْهِكُوا في المعـارك .. ولا نقول إنَّهما قـد اكتسبتا فنوناً عديدة ، وخبرة كبيرة ، وَمِرَاساً طويلاً عبر حروبها ؟

عندما خرج المسلمون فـاتحين من جزيرتهم ، كان الروم يستصغرون شـأنهم ، وكان الفرس يحتقرون قـدراتهم ويسمـونهم بـالجيـاع .. فقـد قـال يـزدجرد لسفراء المسلمين قبيل القادسية[1] : « إني لا أعلم في الأرض أُمّـة كانت أشقى ولا أقل عـدداً ولا أسـوأ ذات بين منكم ، قـد كنـا نـوكل لكم قرى الضـواحي فيكفـوننـا أمركم ولا تغزوكم فـارس ، ولا تطمعوا أن تقوموا لفـارس ، فـإن كان غررٌ لحقكم فـلا يغرنَّكم منا ، وإن كان الجَهدُ دعـاكم ، فَرَضْنَـا لكم قُوتـاً إلى خِصْبِكُم ، وأكرمنـا وجوهكم ، وملَّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم »[2] .

---

(١) راجع (القادسية) من سلسلة المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام ٤٣ ، من الطبعة الرابعة .

(٢) راجع الطبري ، ٤٩٩/٣ أو الكامل ، ٣١٥/٢

فكان الجواب من المغيرة بن زُرارة ليزدجرد على الشكل التالي :

« أيها الملك .. إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشرافُ الأشرافَ ويعظِّم حقوقَ الأشرافِ الأشرافُ ، ويفخِّم الأشرافُ الأشرافَ .. وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمتَ به أجابوك عليه ، وقد أحسنوا ولا يحسُن بمثلهم إلاّ ذلك .. فجاوبني لأكون الَّذي أُبلِّغك ، ويشهدون على ذلك ، إنَّك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً ، فأما ما ذكرت من سوء الحال ، فما كان أسوأ حالاً منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيَّات ، فنرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فإنَّما هي ظهر الأرض ، ولا نلبس إلاَّ ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حيَّة كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولِدَه ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا ، وبيته أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرنا في الحال الَّتي كان فيها أصدقنا وأحلمنا ، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب[1] كان له ، وكان الخليفة من بعده فقال وقلنا ، وصَدَّق وكذَّبنا ، وزاد ونقَّصنا ، فلم يقل شيئاً إلاَّ كان ، فقذف الله في قلوبنا التَّصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا : إن ربكم يقول : إني أنا الله وحدي لا شريك لي ، كنت إذْ لم يكن شيء وكل شيء هالك إلاَّ وجهي ، وأنا خلقت كل شيء ، وإليَّ يصير كل شيء ، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السَّبيل الَّتي بها أُنجيكم بعد الموت من عذابي ،

(١) يعني أبا بكر رضي الله عنه . وترب الرجل الذي ولد معه : أي نظيره في العمر ، لسان العرب ٢٣٠/١

ولأُحِلّكم داري ، دار السَّلام ، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال : من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتي ، ومن بقي منك أعقبته النصر على من ناوأه ، فاختر إن شئت الجزية عن يَدٍ وأنتَ صاغِرٌ ، وإن شئت فالسَّيف ، أو تُسلم فتنجي نفسك » .

قال يزدجرد : أتستقبلني بمثل هذا ؟

فقال ابن زُرَارَة : ما استقبلت إلاَّ من كَلَّمني ، ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به .

فقال يزدجرد : لولا أنَّ الرُّسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندي ، ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنّي مُرْسِلٌ إليه رستم ، حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسيَّة ، وينكِّل به وبكم ، ثم أُورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابق » .

ـ فهذا الحوار يدل بوضوح على نظرةِ الفرس إلى العرب المسلمين ، ويدل على ثقتهم بأنفسهم ، معتمدين على دولة مترامية الأطراف ، صاحبة ماض عريق ومرهوبة الجانب .

٦ ـ النَّصر العسكري ، ليس له قيمة تذكر ، أمام انتصار العقيدة .. لقد استمرت حروب الفرس والروم فيا بينهما أربع مئة سنة ، دون حسم ، لأن حروبها لأطماعٍ ودنيا ، لا لعقيدة .. ولما جاءت عقيدة الإسلام فلَّت كُلَّ سلاح ، وتهاوت أمامها جيوش الفرس والروم .

لقد تبع النَّصر العسكري ، نصر في مجال العقيدة ، واعتناق أبناء الفرس والروم عقيدة الفاتحين باختيار ودون إكراه .. وهنا تكمن عظمة الفاتحين

المسلمين ، إنهم نقلوا الفرس والروم إلى الإسلام .. فكان النصر الحقيقي .. انتصار العقيدة .. لا انتصار قوة الجسد وعضلاته !!.

٧ ـ حارب المسلمون البربَر وهم أبناء شدة وبيئة قاسية وانتصروا عليهم عسكرياً ، ونقلوهم إلى الإسلام ، فقاموا معهم ليبلغوا العالم الرسالة الإسلامية .

كما حارب المسلمون التُّركَ في أواسط آسية ، وتمَّ النَّصر للمسلمين عليهم ، وهم أبناء صحراء ، وأبناء بيئة قاسية صقلتهم ..

وهكذا ..

حروب العرب بجزيرتهم ، وفي اليرموك والقادسية ونهاوند .. وفي شمال إفريقية وقلب آسية ، وغربي أوربة .. اعتمدت على العقيدة أوّلاً وأخيراً .. وما استثنى المسلمون دولة أو أرضاً أو شعباً في العالم عند فتوحاتهم خوفاً منهم لأنهم أقوياء .. وهل فتشوا عن دولة أو شعب ضعيف يحاربونه ليحققوا نصراً ؟ لو صح ذلك ، لرأينا على مصوّر الفتوحات الإسلامية بقاعاً فُتِحَت وانتصر فيها المسلمون ، وبقاعاً أُخرى مستثناة لوجود دولة قوية عليها ، رهبها المسلمون ، فلم تُفْتَح !!

واليوم وفي عصرنا هذا .. ألا نرى أن الإسلام ينتشر من غير انتصارات عسكرية ؟ إن الإسلام اليوم كما يسميه الأوربيون هو (الدِّين الزاحف) ، رغم أصعب الظروف التي تقف في وجهه !!

إن الإسلام اليوم ينتشر في اليابان ، وفي كندة ، وفي أمريكة ، وإنَّ صيحة أُوربة اليوم : ادرسوا الإسلام ..

وعلى ذلك .. فإن الحروب الأُولى للمسلمين ، لم تكن هدفاً بذاتها .. إنَّها كانت وسيلة للوصول إلى الشُّعوب ، وعند ذلك .. يتم تبليغ الرِّسالة .. ثم يُتْركون وشأنهم فإذا منهم العلماء والحكماء .. ومنهم الفاتحون المحرِّرون .. لإعجابهم بالدين الجديد ..

فتاريخ الإسلام تاريخ متميز ، تـاريخ لا يماثلـه تـاريخ .. مهما تكلم بحقـه جهال يريـدون غمطـه ، أو تنقيصـه .. إنـه تـاريخ متميِّز بـأحـداثـه وعقيـدتـه ، لا يماثله فيهما تاريخ آخر .

سنّة وشيعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
﴿ وَجَاهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَٱعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ .
[الحج : ٧٨] .

قال صاحب (**غزوة ذات النطاقين**) : وماذا عن حروب المسلمين فيما بينهم ، وماذا عن انقسامهم إلى مذاهب ؟! .

قلت مجيباً : إن ما حدث في سقيفة بني ساعدة[١] بين المهاجرين والأنصار ، يحدث عادة حينما يناط الحكم بالموافقة الشعبيّة ، فتتشكل فئات يعارض بعضهم بعضاً .. وهي في الإسلام سرعان ما تتلاشى عند البيعة للخليفة الجديد .

وإن ما جرى في سقيفة بني ساعدة ، يجري في كل دولة حكمها شوري ديمقراطي ..

وإنه بعد إتمام انتخاب الصديق رضي الله عنه ومبايعته ، ترك منافسه

---

(١) راجع الطبري ٢١٨/٣ للاطلاع بالتفصيل على أخبار انتخاب الصديق رضي الله عنه فيها عام ١١ هـ .

سعدُ بن عبادة[1] الأمر للصِّدِّيق دون ضجيج ، فالتحمت الكلمة ، وانتهت آثار السَّقيفة النفسية في السَّقيفة نفسها . حتى أن سعداً رأى أن يرتحل عن المدينة المنوَّرة كي لا يراه أحد من أنصاره ، فتهيج في نفسه منافسته للصِّدِّيق ، لقد أراد سعد رضي الله عنه ، طمس الأمر نهائياً ، فارتحل إلى المنيحة[2] في غوطة دمشق ، حيث توفي سنة ١٥ للهجرة .

أما عن عمر رضي الله عنه ، وعليٍّ كَرَّم الله وجهه ، فقد يتخيل شبابنا اليوم ، أن بينهما ما صنع الحداد .. والحقيقة التاريخية ، خلاف مافي أذهانهم ..

لما رأى عمر رضي الله عنه لزوم الخروج إلى بيت المقدس عند الفتح .. مَن استخلف على المدينة المنورة ؟ من ترك نائباً عنه يرعى أُمور الجزيرة العربيَّة ؟

التاريخ يقول جواباً على ما سبق : **لقد استخلف عُمرُ علياً رضي الله عنه على المدينة المنوَّرة .. هكذا كانت محبة عمر لعليٍّ ، وثقة عمر بعليٍّ ، وهكذا كانت إيجابية علي مع عمر ، وهكذا كانت نفسيَّة علي على مستوى المسؤولية زمن عمر ..** لقد تمثل الإيمان في شخصيهما الكريمين .. فلماذا نظهرهما مختلفين متنافرين ؟ إنَّ التاريخ الصحيح أصدق مما يتصوره الكثيرون من جهلاء العامة ..

أما قال عمر رضي الله عنه يوماً بحق علي رضي الله عنه : « **أتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن** » أي سيدنا علي ؟!

وما الخلاف أيام عثمان رضي الله عنه ، إلا فتنة يهودية قام بها عبد الله بن

(١) وهو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن حرام بن خزيمة .. الخزرجي الأنصاري السَّاعدي ، قال ﷺ بحقه : « إن سعداً لغيور ، وإني لأغير من سعد ، والله أغير منّا ، وغيرة الله أن تؤتى محارمه » . راجع أُسد الغابة ٢/٣٥٦ ، والإصابة في تمييز الصحابة ٢/٣٠ .

(٢) وتعرف اليوم باسم المليحة .. وهي في غوطة دمشق الشرقية ، وضريح سعد فيها معروف يزار .

سبأ بذكاء[1] ، لن نخوض في تفاصيلها فليس الهدف سرد أحداثها هنا ، لقد فصّلنا ذلك في كتابنا (عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي) .

ولكننا نقول : لماذا نظهر علياً رضي الله عنه مندفعاً نحو السُّلطة يطمع بها ، ويكرس حياته من أجلها ؟! الخلافة أو السُّلطة مسؤولية كبرى .. لم يتهرب عليّ منها ، ولكنه ما جعلها همه الأوْحد ، تركها للصّدّيق وبايعه ، وتركها لعمر وبايعه ، وتركها لعثمان وبايعه ، بل وأرسل ابنيه الحسن والحسين للدفاع عنه عند حصار الغوغاء لدار عثمان .

الخلافة مسؤولية دون شك ... ومع ذلك لما جاءته رضي الله عنه ، أخذها بأمانة وصدق وإخلاص .. وكان ما كان في (الجَمَل) و (صِفِّين)[2] وكان الخلاف سياسيّاً ، ولم يكن خلافاً دينياً .. كان الخلاف للحفاظ على العقيدة ، وليس منبعه اختلاف في العقيدة .. ولم يكفِّر بعضهم بعضاً ..

والحفاظ على وحدة الصف اليوم ، تسر أبا بكر وعمر وعثمان ، كما تسر علياً ، والرجوع إلى كلمة مسلم مؤمن فلا سُنّة ولا شيعة ، تسر قلب

---

(١) قدم الدكتور يوسف العش رحمه الله كتاباً قيماً للمكتبة العربية بعنوان : (الدولة الأموية والأحداث الّتي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان) . درس فيه الرّوايات السّبع التي روت أخبار الفتنة . استبعد منها الروايات الضعيفة الواهية ، ثم استنتج الأسس الّتي دلت عليها الروايات الصحيحة ، منها : أنه لم يكن في ذهن طلحة والزبير الاستيلاء على الخلافة بعد عثمان ، بل كانا يريان أن علياً هو الأصلح لها ، وأن عائشة كانت على رأيها في ذلك .. وأن هنالك يداً خفية كانت تلعب من وراء السّتار لتوقع الفرقة بين المسلمين ، فهي التي زوّرت الكتب على لسان الصحابة ..

(راجع الكتاب المذكور في ١١٧/٣٠) الكتاب طبع جامعة دمشق عام ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م ، وأُعيد طبعه في دار الفكر ١٩٨٥ م .

(٢) صِفّين : موضع بقرب الرَّقَّة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس ، وكانت وقعة صفّين بين عليّ رضي الله عنه ، ومعاوية في سنة ٣٧ هـ في غرّة صفر .. (معجم البلدان ٤١٤/٣) .

رسول الله ﷺ وتسر أبا بكر وعمر وعثمان كما تسر علياً ..

هذا .. ولا يعيب مبادئ الإسلام ، خلاف يجري للحفاظ عليه .. وهذه هي العقائد والثّورات والدّعوات الحديثة والمعاصرة ، ما خلت واحدة منها من خلاف في وجهات النظر ، ولا من حروب أهليّة مدمرة طاحنة .

فالثورة الإنكليزية التي حققت جمهورية (أوليفيه كرومويل) لمدة إحدى عشرة سنة ، لم يحتفظ الإنكليز منها إلاّ بالعداء للنظام الجمهوري ، الذي اقترن في أذهانهم بذكريات سفك الدماء والفوضى والدكتاتورية .

أما شهدت أمريكة بعد خروج الإنكليز منها عام ١٧٧٠ م حرباً أهلية طاحنة طويلة ؟!

والثورة الفرنسية التي قامت عام ١٧٨٩ م ، أما شهدت عام ١٨٣٠ م ثورات رهيبة في شوارع باريس ، مما جعل الملك شارل العاشر يفر إلى إنكلترة متنازلاً عن العرش .

وفي روسية ، أما ضرب لينين وبراونشيتن وترتسكي ضربتهم بعد خلاف شديد مرير ، وقضوا على جناح ، أو حكومة كيرنسكي ، عندما هاجم الثوار الحمر قصر الشّتاء في بيترغراد ؟

فثورات وعقائد العصر الحديثة ـ التي عابت على الإسلام زوراً ـ مافيها من عيوب ، نقول بحقها : إن الاختلاف الذي أدى إلى حروبكم الأهلية ، كان خلافاً ناشئاً من كُنْه وفكر العقيدة ، مع طمع في الحكم والسُّلطة ، أما خلاف المسلمين ، فقد كان خلافاً للحفاظ على الإسلام معافى ، كان للحفاظ على العقيدة موحَّدة .. فشتان بين حروبكم واختلافاتكم وتعطُّشكم للسُّلطة وبين المسلمين وخلافاتهم .

وإلى الذين جعلوا من الخلاف السّياسي بين عليٍّ ومعاوية مذهباً دينياً

تقول : خلاف سياسي على دم عثمان رضي الله عنه ، جرى منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، كيف جعلناه خلافاً دينياً مذهبيّاً ؟ أما كان الأجدر أن ينتهي بانقضاء هذه المدة الطويلة عليه ؟ متى سيطمسه التقادم ؟ ألا ترضون بتسمية الله عز وجل لكم ﴿ **هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ..** ﴾ [الحج ٧٨] .

فالمنطق يقول ، والعقل يفرض ، ومصلحة المسلمين توجب ألاَّ سُنّة ولا شيعة .. بل مسلمون مؤمنون ... كما كانت تسميتهم أيام المصطفى ﷺ وكفى ...

وماذا عن هدي الحج ؟

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ :
﴿ لَنْ يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

[الحج ٣٧]

ما هي قصة هذه اللُّحوم الَّتي تُذبح في مِنًى ثم تتكدس ، ولا يُستفاد من معظمها حيث يتعفَّن بعضها ، ويدفن بعضها الآخر ولا يستفاد إلاَّ من القليل منها !! أليس في هذا هدر للأموال وتبديد للثروة ؟.

قبل الإجابة على هذا التساؤل لابد من تحديد معنى الهَدْي الَّذي يذبحه الحاج :

الهَديُ في اللغة[١] وفي الشَّرع ، اسم للحيوان الذي يُهدى باسم الله إلى الحرم قربةً إلى الله تعالى ، يُطْعَمُ منه الفقير والمسكين ، وهو لا يكون إلاَّ من الإبل والبقر والغنم بالإجماع .

قال تعالى :

﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . [الحج ٣٦]

---

(١) الهَدْيُ بالتخفيف لغة أهل الحجاز ، والهَدِيّ بالتثقيل لغة بني تميم وسُفْلى قيس ، وهو ما يُهْدى إلى البيت الحرام من النعم لتُنْحر .. (اللِّسان : هدي) .

ولا بد حين يُقَـدِّمُ الإنسـان هـديـه لله من أن يكون ذلـك بتقوى وإخلاص حيث بها يقبـل اللهُ عمـلَ الإنسـان ، وبها يُرفـع الهـدي إليـه قـال تعـالى ﴿ **لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحومُها وَلا دِماؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ** ﴾ . [الحج ٣٧] .

الشريعة لاَذنبَ لها

أما الذي يحدث للذبائح من هدر أو دفن أو حرق فليس في سببه نـاشئـاً عن أصل التَّشريع الَّذي هو خيرٌ كلُّـه ، وسعـادةٌ للإنسـان في الـدارين ، وإنمـا بسبب الجهل وعدم الإلمام بأَحكام الشَّرع ، فربنا جلَّ جلاله لم يشرِّع لعباده إلاَّ كل نـافع ومفيد . بل لا يقبل من المسلم أن يبدد ويضيع أَيَّة ثروة أو مال يمكن أن يستفـاد منه[1] :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : تُصُدِّق على مولاةٍ لميمونـة ـ أُمِّ المؤمنين ـ بشاة فماتت فمر بها رسول الله ﷺ فقال : « هلا أَخذتم إهابها ـ جلدها ـ فـدبغتموه فانتفعتم به ؟ » قالوا إنها ميتة ! قال ﷺ : إنَّما حرَمَ أكلها » [رواه الجمَّاعة إلاَّ ابن ماجه] .

وعن سودة أُمِّ المؤمنين قالت :

« ماتت لنا شاة فدبغنا مسكها ـ أي جلدها ـ ثم ما زلنا نَنْتَبِذُ فيـه ـ أي نضع فيه التمر ليحلو الماء ـ حتى صار شناً أي قُربة خَلِقه » [رواه البخاري وغيره] .

هذا بالنسبة لإهاب شاة ميتة أمر النبي الكريم ﷺ أن يستفـاد منـه فكيف بالنسبة لذبيحةٍ هي بكامل صلاحيتها . من هـذا وغيره فما يَحـدُثُ للـذبـائح من هدرٍ أو دفن أو تبـديـد ليس إلا بسبب الجهل بـأحكام الشريعـة . ويتوضح الأمر ضمن ما يلي :

---

(١) هذا ، وأُقيمت اليوم معامل لتعليب لحم الهَدْي كلّه والانتفاع منه ، وإرساله لفقراء المسلمين أينما وُجِدوا .

١ - ليس الذبح مطلوباً من كل حاج :

إن شرع الله لم يطلب من كل حاج أن يذبح ، فالـذي نوى الحج واستمر على إحرامه حتى أتمّ مناسكـه ليس عليـه ذبح .. بمعنى آخر : إذا لم يرتكب الـذي نوى الحج خطيئةً أو محظوراً لا ذَبْح عليه .

ولماذا يكون الخطأ إن كان الحاج قد وعى ما يؤدي ، أو كان برفقـة عـالم يُنير أمامه السَّبيل ويدلُه على الخطأ والصواب .

٢ - ليس الذبح خاصاً بمنى وحدها :

إن شرع الله لم يطلب أن يكون الـذبـح - ممن وجب عليـه الـذبـح - في منى وحدها كما يفعل الكثير من الحجاج إنَّما الحَرَمُ كلُّه مكان للذبح قـال تعـالى : ﴿ **ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيـقِ** ﴾ [الحج ٣٣] ، وقـال : ﴿ **هَـدْيـاً بَـالِـغَ ٱلْكَعْبَـةِ** ﴾ [المائدة ٩٥] ، وقال : ﴿ **حَتَّى يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُ** ﴾ [البقرة ١٩٦] . والمراد بهـذا مادل عليه قول النبي ﷺ وعمله . وهو الحرم كله كمكان وميدان للذبح .

قال ﷺ : « إنَّ منى كلها منحر ... وإن مكّة وفجاجها منحر » .

وفي حديث آخر :

« كل عرفة موقف وكل منى منحر ، وكل المزدلفـة موقف ، وكل فجـاج مكَّـة طريق ومنحر » ، [رواه أبو داود وابن ماجه] .

إذن يصـحّ الـذبـح في منى كما يصـح في نفس مكـة ، وفي المـزدلفـة وفي كل الأمكنة التي هي من الحرم .

بمعنى آخر : إنَّ مكان الذَّبح واسع ومُتَّسِع ، وليس بضيقٍ ولا محدود .

٣ - ليس كل الهدي مقيداً بزمن محدد للذبح :

إن القرآن الكريم لم يَعْرِض للزمن الذي يجب الذبح فيه ، فالهدي يمكن ذبحه

بعد أن وجب عليه في أي وقت شاء الإنسان ، قال السَّادة الأحناف : دم النذور والكفارات والتطوع لا يختصُّ ذبحه بوقت .

أما الإمام مالك وأحمد فقالا : يختص ذبح الهدي ولو تطوعاً بأيام النَّحر الثلاثة .

وعند الشافعية : وقت الذبح يوم النَّحر وأيام التَّشريق .

أما بالنسبة لهدي التَّمتُّع : (والمتمتع في الحج هو أن يُحرم الإنسان بالعمرة في أشهر الحج ، ويفرغ منها ، ثم يحرم بالحج في نفس العام) ..

هدي المتمتع هذا ، يمكن أن يكون بمكَّة قبل الخروج إلى عرفة ، بل قبل الإحرام للحج ، وفي ذلك تفصيل وآراء .

السَّادة الأحناف : قالوا هدي التَّمتُّع والقِران يذبح أيام النَّحر ، ودم المنذور والكفارات والتطوع ـ كما مر قبل قليل ـ لا يختص ذبحه بوقت .

السَّادة الشافعية قالوا : إذا كان الهدي للتمتع أو القِران فوقت وجوبه الإحرام بالحج . ووقت **استحباب ذبحه** يوم النحر . ووقت **جواز** ذبحه بعد الفراغ من العمرة والإحرام بالحج . لأن الذبح قربة تتعلق بالبَدن ، فلا يجوز قبل وجوبها مثل الصَّلاة والصَّوم . وعندهم قول بجواز الذبح بعد العمرة للمتمتع ، ولكنه خلاف الأَوْلى .

أما بالنسبة للأُضحية : فهي ليست واجبة على الحاج ، ولا على المسافر ، وهي غير الهدي .

من هذا كُلِّه ، يتضح لنا أن هناك متَّسعاً في الزَّمن ومتَّسعاً رَحْباً في المكان . وهذا يُوَزِّع الذبائح على الأَمكنة والأزمنة ، فلا يحدث ما يؤدي إلى تكديسها وهدرها .

٤ ـ حالة الإحصار :

الإحصار معناه لغة : الحبس والمنع[(١)] ، وشرعاً المنع عن إتمام الحج أو العمرة **بسبب قاهر** ، كعدو أو مرض أو موت مَحْرَمْ المرأة ، أو هلاك النَّفقة وهذا رأي أبي حنيفة .

الإمام مالك والشَّافعي قالا : لا يكون الإحصار إلاَّ بسببِ العَدُوِّ . أيّد ذلك قول ابن عباس « لا حصر إلا حصر العدو » [أخرجه البيهقي] .

والراجح أن الحصر يكون بالمرض والعدو وغيرهما لعموم الآية الكريمة **﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾** [البقرة ١٩٦] . هنا طُلب الذبح عيناً متى تَيَسَّر ولا تخييرَ فيه .

أمَّا إذا كان هناك **انتهاك للإحرام أو اعتداء عليه** بفعل محظورٍ ، كتغطية الرأس ، أو التعرض لصيد الحَرَم ، أو لبس مفصل على الجسم ، هنا طلب الهدي على سبيل التخيير بين الهدي وبين الصوم والإطعام قال تعالى :

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ . [البقرة ١٩٦] .

وقال عز وجل : **﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا ٱلصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَاقَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُم هَدْياً بَالِغَ ٱلكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ .. ﴾** [المائدة ٩٥] .

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ المراد صومُ ثلاثة أيام ، أو إطعام ستة مساكين .

---

(١) حَصَرَهُ يَحْصُرُهُ حَصْراً ، فهو محصورٌ وحَصِيرٌ ، وأحْصَرَهُ : حبسه عن السفر ، وأُحْصَرَهُ المرض : منعه من السَّفر أو من حاجة يريدها ، (اللِّسان : حصر) .

٥ ـ حسن اختيار الهدي وطريقة ذبحه :

إن حسن اختيار الهدي ، وطريقة ذبحه وسلخه ، يُعتبر أمراً هاماً في هذا النطاق ، فلو اختار من وجب عليه الذبح ، اختار هديه من غير الهزيل ولا الضعيف ، فالهزيل والمريض مما ينفر النّاس من أكله ، كذلك لو تمّ سلخُ الهدي وتقطيعُه بعد ذبحه ، لكان في ذلك ترغيب من الاستفادة منه وعدم الزهد فيه .

٦ ـ استخدام الوسائل الحديثة :

أخيراً ما المانع من استخدام إحدى الوسائل الحديثة لتعليب اللحوم الفائضة وتجفيفها ثم لتوزع فيما بعد على فقراء الحرم والمحتاجين هناك وعلى مدار السنة ؟

لو حدث هذا لكان هناك حفظ لثروة هائلة يستفيد منها المسلمون[١] .

خلاصة الأمر :

لو عرف الحاجُّ أحكام الله في الحج فيما يختص بالدماء ، فتصدق من لم يُطلب منه الذّبح ، وَذَبَحَ من طُلب منه الذّبح ، وفرقوا هديهم على الأماكن والأيام ، ثم تخيّروا الذبيحة من غير العجاف والمرضى ، وهيؤوها بالسلخ والتقطيع ، لما كان لشكوى تكديس اللُّحوم وطمرها وهدرها من موضع[٢] .

---

(١) وهذا ماتمّ والحمد لله كما أشرنا في حاشية سابقة .

(٢) الفتاوى لمحمود شلتوت .

ماذا عن الطوفان ؟

« لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث ، وكنت أعرف ، قبل هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمات ، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتي كانت وجيزة ، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث » .

(د . موريس بوكاي)

جاء في كتاب (الرِّياضيَّات المسلِّية)[1] فصل (الرِّياضيَّات وأُسطورة الطُّوفان) حرفياً ما يلي :

[نجد بين الأساطير الخالية الكثيرة الواردة في الكتب القديمة ، أسطورة تقول : إنَّ العالم كلَّه قد غرق في غابر الأزمان بفعل أمطار كانت أعلى من أعلى الجبال ، وحسب ما يرد في هذه الكتب فإنَّ الرَّب قد « ندم مرة على أنه خلق الإنسان على الأرض » ، وقال : سأهلك البشر الَّذين خلقتهم على سطح الأرض

(١) كتاب (الرياضيات المسلية) لـ (ياكوف بيريلمان) ترجمة د . إبراهيم محمود شوشة ، طباعة دار مير للطباعة والنشر (موسكو) ، طبعة عام ١٩٧٧ م ، وفصل (الرياضيات وأُسطورة الطوفان ، ٢٣٦) .

(أي على سطح الكرة الأرضية) من البشر حتى المواشي والزواحف والطيور السّماوية سأهلكها كلها .

وكان الإنسان الوحيد الذي أراد الله أن يرحمه عندئذ ، هو التقي نوح ، لذلك فقد حذّره الرّب مما يجري من تحضيرات لهلاك العالم ، وأمره ببناء سفينة كبيرة (وسمي في الكتب القديمة بـ : الفُلك) ، بالمقاييس الآتية : (طول الفلك ٣٠٠ ذراع ، عرضه ٥٠ ذراعاً ، وارتفاعه ٣٠ ذراعاً) . وكان الفُلْك يتألَّف من ثلاثة طوابق ، وكان يجب أن ينجو على هذه السفينة ليس نوح فقط مع أُسرته ، وأُسر أبنائه البالغين ، ولكن كل أصناف الحيوانات على الأرض ، وأصدر الرَّبُّ أمره إلى نوح أن يأخذ في الفلك زوجاً واحداً من كل أصناف هذه الحيوانات مع احتياطي من المأكولات لها لمدَّة طويلة .

واختار الرَّبُّ الفيضان النَّاجم عن الأَمطار ، وسيلة لإهلاك كل ما هو حي على اليابسة ، ووجب على الماء أن يقضي على كل الناس ، وكل أصناف الحيوانات الَّتي تعيش على الأرض ، بعد ذلك ، يجب أن تظهر من نوح ومن الحيوانات الَّتي أُنقذت معه سلالة إنسانية جديدة ، وعالم حيواني جديد .

ويذكر في الكتب القديمة أنه بعد سبعة أيام ، جاءت مياه الفيضان إلى الأَرض ، وهطلت الأَمطار على الأرض طيلة ٤٠ يوماً و٤٠ ليلة .. وتزايدت المياه ورُفعت الفُلْك وطاف فوق الماء .. وازدادت المياه فوق الأَرض بصورة خارقة ، بحيث تغطت كل الجبال العالية التي توجد تحت السماء ، وارتفعت فوقها بمقدار ١٥ ذراعاً .. فهلك كل ما كان موجوداً على سطح الأَرض ، وبقي نوح فقط وما كان معه في الفُلْك ، وتروي الأُسطورة أنَّ المياه بقيت فوق الأرض مدة ١١٠ أيَّام أخرى ، وبعد ذلك اختفت ، وغادر نوح الفُلْك ومعه كل الأحياء الَّتي أُنقذت ، لكي يعمر مرة أخرى الأَرض الخالية] .

ثم يتساءل المؤلِّف قائلاً : سنضع سؤالَيْن بشأن هذه الأُسطورة :

١ ـ هل كان من الممكن حدوث مثل هذا السيل ، الَّذي غطى الكرة الأَرضية كلها بأعلى من أعلى الجبال ؟

٢ ـ هل كان يستطيع فُلْك نوح أَن يتَّسع لكل أَصناف حيوانات الأَرض ووضع للسؤال الأَوَّل جواباً هو ليس من الممكن ، لأن المياه كانت من الجو فقط ، ومياه الجو لاتكفي لإحداث الفيضان ، « وهكذا فلو كان الطوفان العظيم المطري قد حدث فعلاً ، فإن هذا لما كان فيضاناً أبداً ، بل مطراً ضعيفاً جداً ، لأنه كان سيعطي خلال أربعين يوماً من السقوط المستمر كمية من المياه ارتفاعها ٢٥ مم فقط ، أي أقل من نصف ميلمتر في اليوم » .

وجعل للسؤال الثاني جواباً هو أَنَّ السَّفينة ضيقة بالنسبة للحيوانات ، وكانت يجب أن تكون (أكبر بعدد كبير من المرات) ، وختم قوله : « باختصار إنَّ الأُسطورة القديمة عن الطوفان العظيم لاتتفق مع الحسابات الرِّياضيَّة البسيطة ، لدرجة أَنَّه من الصعب أن نجد فيها حتى جزءاً صغيراً من أي شيء يطابق الواقع ، وأغلب الظن أنها استوحيت من فيضان محلي ، أَمَّا الباقي فهو من ابتداع الخيال الشرقي الغني »[١] .

وقبل أن نظهر الحقيقة ، بتفنيد مزاعم الكتاب المذكور ، نعرض نقطتين اثنتين ، هما تاريخ بلاد الرافدين القديم ، والطُّوفان في القرآن الكريم :

تاريخ بلاد الرافدين القديم

مَرَّ التاريخ القديم لبلاد الرافدين بالعصور التالية[٢] :

---

(١) الكتاب المذكور ، ٢٤٢

(٢) كتاب (الشرق الأدنى القديم) للأستاذ عبد العزيز عثمان ـ طبع جامعة دمشق ـ كلية الآداب لعام ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ م .

١ ـ **العصر الحجري القديم :** اكتشف العالم (سويلي) آثار هذا العصر سنة ١٩٥٤ م ، في كهف (شانيدار) شمالي شرقي الموصل . حيث عثر على بقايا هياكل عظميّة تعود إلى هذا العصر .

٢ ـ **العصر الحجري الحديث :**

أ ـ **(حضارة جرمو) :** عثر الأستاذ (بريد وود) سنة ١٩٤٨ م على مركز هام من مراكز هذا العصر في قرية (جرمو) الواقعة في غربي مدينة السُّليمانيَّة ، وأرجع العلماء تاريخ هذا المركز إلى نحو ٦٥٠٠ ق . م ، أي إلى مابعد ظهور المجتمعات القرويّة الزِّراعيّة بقليل .

ب ـ **(حضارة عصر تل حَسُّونَة) :** ويقع جنوبي الموصل ، ويرجع عهد هذا العصر إلى حوالي سنة ٥٧٥٠ ق . م . وكانت بعثة مديريّة الآثار العراقيّة قد نقَّبت في هذا التل سنة ١٩٤٣ م ، ومن أغرب ماعثرت عليه البعثة ، تماثيل فَخّار صغيرة الحجم ، تمثِّل أشكالاً مصنوعة من الطِّين الفخّاري ، مما يدل على ظهور نوع من العبادات الوثنيّة .

ووجد العالم (مالوان) سنة ١٩٣١ م نماذج مماثلة لـ (حضارة تل حَسُّونة) في نينوى بالقرب من الموصل ، واكتشف نماذج أخرى من هذه الحضارة في أماكن متعدِّدة في شمالي العراق .

جـ ـ **(حضارة تل حلف) :** عثر عليها العالم الألماني (البارون فون أوبنهايم) في قرية تل حلف ، بالقرب من ناحية رأس العين[1] في سورية .

٣ ـ **العصر النحاسي الحجري في وادي الرافدين :** تتمثَّل حضارة هذا العصر في ثلاثة مواقع هامة ، وهي بالترتيب :

---

(١) رأس العين : مدينة سورية إلى الغرب من القامشلي ، وهي نبع نهر الخابور .

أ ـ (**تل العبيد**) قرب مدينة أُور القديمة جنوبي بلاد الرافدين ، وقد اكتشفته بعثة المتحف البريطاني برئاسة (الدكتور هول) وتابع التنقيب المؤرخ (ليونارد وُولي) ، وعثر في (أور) على دُمَى من الطِّين ذات مغزى ديني .

ب ـ **حضارة عصر أوروك (الوركاء)** : عثرت عليها بعثة ألمانيّة .

جـ ـ **حضارة عصر جمدة نَصّر** : اكتشف آثار هذا العصر العالم الأثري (لانكدون Langdon) سنة ١٩٢٠ م في تل صغير يقع بالقرب من مدينة (كيش) القديمة يدعى (جمدة نَصّر) .

وفي نهاية هذا العصر ـ كما تقول كتب التاريخ ـ حصل الطوفان العظيم الذي غمر (بلاد مابين الرافدين) ، فقضى على معظم السكان ، ولم يبق منهم إلا عدد ضئيل ، وقد أثبتت الحفريات التي حفرت في أُور وأُوروك وكيش وشوروباك .. حدوث فيضان عظيم بين عصر العبيد وعصر السُّلالات الأولى ، فيضان عظيم حصل في آخر عصر جمدة نَصّر . وقد وجد العالم الأثري (وولي) طبقات كثيفة من الغِرْيَن في مدينة أُور بعمق مترين ونصف . ووجد (وولي) آثار السُّكنى البشريَّة فوق هذه الطبقات وتحتها . واستنتج من ذلك أن هذا الغِرْين قد أتت به مياه فيضانات دجلة والفرات . وقد قدَّر مساحة الأرض التي غمرها الفيضان بأربع مئة ميل طولاً ، وألف ميل عرضاً .

« وربما كانت قصة الطوفان المذكورة في الكتب المقدسة أقدم من هذا الطوفان بعصور كثيرة ، فقد أرجعها العالم الأثري (كونتنو) نقلاً عن العالم (دي مورغان) إلى العصر المطير الذي تبع عصر الجليد في نهاية الدور الرابع ، حيث هلك عدد كبير من الناس ، وقد خَلَّدت الرُّقَم التي اكتُشِفَت في مكتبة (آشور بانيبعل) هذا الطُّوفان ، وبعد انتهاء الطُّوفان تذكر هذه الرُّقم أنَّ الملكيَّة عادت إلى الأَرض ، فابتدأت بذلك العصور التَّاريخية . وفي بدء هذه العصور .

اشتدت قوة السُّومريين ، فسيطرت بعض السُّلالات على بعض المدن ، وسُمّي أول عصر تاريخي بعصر فجر السُّلالات ، أو عصر السُّلالات الأُولى القديمة »[1] .

عصر السُّلالات الأُولى : أهم الكتابات عن هذا العصر كتبها المؤرخ البابلي (برحوشا) أو (بيروسوس) ، فقد ترك سجلاً تاريخياً بأسماء ملوك سومر وأكاد ، وينقسم هذا السِّجل التاريخي إلى قسمين ، الأول منهما لملوك ماقبل الطُّوفان ، وهو ينتهي بالجملة التالية : (وبعد ذلك جاء الفيضان ، وبعد الطُّوفان هبطت الملكية مرة أخرى من السَّماء) .

الطُّوفان في القرآنِ الكَريم

ورد ذكر نوح عليه السَّلام في ثلاثة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم ، وذُكِرَت قصَّته مفصَّلة في السُّوَر التالية : الأَعراف ، وهود ، والمؤمنون ، والشعراء ، والقمر ، ونوح .

أوضحت القصة أَنَّ قوم نوح عليه السَّلام عكفوا على عبادة غير الله تعالى ، واتخذوا لهم أَصناماً يعبدونها من دونه ، فأرسل الله نوحاً إليهم ، واجتهد بغاية إمكاناته في دعوته ، وبذل منتهى وسعه أن يتبعه قومه في الإيمان بالله ، وأن يقلعوا عن عبادة تلك الأصنام ، وطال الزَّمن ، وهو يقدم النصح والموعظة سرّاً وعلانيةً ، وهم لا يزدادون إلا إعراضاً ونأياً عن طريقته ، حتى تبرموا به ، فأنالوه الأذى ، فيئس نوح عليه السَّلام من هداية قومه ، فأمره الله عزَّ وجلّ بعمل الفُلْك ، لتكون أداة لنجاته ومن معه من الغرق لينجو ومن معه من العذاب النازل بهم ، استبعاداً منهم لوقوعه ، فكان هو أيضاً يسخر منهم ، ومن غفلتهم عن الحق ، وبلادتهم عن أخذ الحيطة لأنفسهم باتباعه بإحسان وتنجية أنفسهم ،

---

(١) تاريخ (الشرق الأدنى القديم ٢١٣) .

وصار نوح عليه السَّلام يتهدَّدهم بذلك العذاب[1] .

ولما أتمّ نوح سفينه وَعُدَّته ، ورأى الأمارة الَّتي بينه وبين ربه سبحانه على ابتداء أمر الطُّوفان ، وهو أن يفور تنور أهله الذي يعملون فيه الخبز ، بأن يَنبثق الماء فيه ، أمره الله عزَّ وجلّ أن يحمل في السَّفينة أهله الَّذين آمنوا بالله وبنبوَّة نوح . ويدخل فيها من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين ، وركب معه أبناؤه حام وسام ويافث مع من آمن من قومه ، وكانوا قليلاً[2] .

فلما استووا على ظهر السَّفينة ، هطلت الأَمطار ، وانفجرت عيون الأَرض ، وحملت المياهُ السَّفينةَ ومن فيها ، ومكثت ماشاء الله أن تمكث ، إلى أن غرق كل ماعلى الأرض من إنسان وحيوان ، ثم استقرت السَّفينة على (الجودي) من جبال آرارات من ديار بكر ، وخرج مَنْ في السَّفينة ، وبارك الله سبحانه وتعالى فيهم ، فكثروا .

وخلاصة القول : إن قوم نوح عليه السَّلام كفروا وعصوا الرسول فأغرقهم الله بالطُّوفان ، ونجّى نوحاً ومن معه في الفُلْك ، وجعل ذريته هم الباقين :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ . وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ . حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ . وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمَرْسَاهَا

---

(١) قصص الأنبياء ، عبد الوهاب النَّجار ، ص ٣٢ وما بعدها .

(٢) قيل كانوا ستة ، أو أربعين رجلاً وامرأةً في رواية أخرى . وكان ممن هلك زوجه وأحد أبنائه .

إنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ . وقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ واسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ . قَالَ يَا نُوحُ إِنَّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ . قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، [هود ٣٦ ـ ٤٨] .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرْ ﴾ ، [القمر ٩ ـ ١٦] .

☆ ☆ ☆

نظرة مُنَاخِيّة وَتَضَارِيسيّة :

الجزيرة العربيـة مرت بعصور مطيرة (البلايستوسين) ، وهي اليوم جافة تجري فيها سيول عند سقوط المطر ، فالظروف المناخية الحالية تختلف عن تلك التي كانت موجودة في المنطقة قديماً . فبينما كانت أُوربة تمرُّ بالعصر الجليدي في بدء الدور الجيولوجي الرَّابع ، كان الشرق الأدنى يمرُّ بالعصر المطير

(البلايستوسين) ، وكانت المناطق الصحراوية الممتدة في وسط إفريقية وجزيرة العرب وإيران ذات مناخ معتدل يشبه مناخ أُوربة الغربية الآن .

وقرر العلماء نتيجة لما سبق ، أن الإنسان لم يكن في ذلك العصر المطير يعيش في الشرق الأدنى القديم على ضفاف الأنهار ، لكثرة الفيضانات والمستنقعات ، بل فوق المناطق الجبلية ، وفوق الهضاب التي كانت أمطارها ومياهها ونباتاتها كثيرة ، ولكنها أصبحت بعد ذلك من المناطق الصحراوية بانتهاء عصر (البلايستوسين) المطير ، وما تزال كذلك حتى اليوم ، ذلك أن الدفء والجفاف أخذا ينتشران فيها شيئاً فشيئاً ، بينما كانت الثلوج تذوب في أُوربة ويعتدل مناخها[1] .

هذا من ناحية المناخ .. أما من الناحية التضاريسية .. فبلاد الرافدين كانت رقعتها أصغر ، حتى أنَّ الدجلة والفرات اللّذين يصبان اليوم معاً كانا في التاريخ القديم يبعدان عن بعضها حوالي ٨٠ كيلومتراً ، وتشكل السَّهل الجنوبي[2] في العراق من رواسب هذين النهرين . إذ كانت مياه الخليج العربي تغمر جزءاً كبيراً من هذا السَّهل . ويقدِّر العلماء أن السَّاحل الحالي يبعد ما يقرب من ١٩٠ كيلومتراً عن السَّاحل القديم ، وأن الأَرض اليابسة كانت تكسب من البحر ما يزيد عن أربع كيلومترات كل مئة سنة .

وجمهور العلماء على أن الطوفان كان في الظاهر عاماً مهلكاً لكل الكافرين ، وحفظ الله تعالى منه نوحاً ومن آمن معه ، وقال بعض المفسِّرين إن ظواهر الآيات تدل بمعونة القرائن على أنه لم يكن في الأرض كلها في زمن نوح إلا قومه ، وأنهم هلكوا كلهم بالطُّوفان ، ولم يبق فيها بعده غير ذريته ، وهذا يقتضي أن

---

(١) تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ١١

(٢) ويسمى هذا السَّهل : سهل شنعار ، وأطلق عليه العرب اسم (السواد) بعد الفتح الإسلامي .

يكون الطُّوفان في البقعة التي كانوا فيها من الأرض سهلها وجبالها لا في الأَرض كلِّها .

فالطُّوفان كان خاصّاً لأن النوع الإنساني لم يكن في جميع الكرة الأرضيَّة ، بل كان منحصراً في بلاد الرافدين حيث نوح وقومه .

وإذا ذكرت التوراة أن الأرض قد علاّها الماء خمسة عشر ذراعاً ، وأباد الله كل ذي حياة من إنسان ووحش وطير .. على وجه الأَرض ، وذكرت أبْعَاد السَّفينة كما ذكرها المؤلف صاحب (الرِّياضيَّات المسلِّية) .. كل ذلك لا يؤخذ به لثبوت أن التوراة كتبت بعد موسى عليه السَّلام بزمن بعيد ، فاعتراها التحريف والزيادة والنقصان حسب آخر الأبحاث العلميَّة .

أما القرآن الكريم الذي ثبت علميّاً صِحَّته ، وأن كل مافيه حقائق ثابتة ، فقد وصف السَّفينة بأنها ﴿ **الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** ﴾ ، [الشعراء ١١٩] . وبأَنَّها ﴿ **ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ** ﴾ ، [القمر ١٣] .

☆ ☆ ☆

الأدِلة العَقليَّة عَلى حُدُوثِ الطّوفَان :

١ً ـ الرُّقَم التي اكتُشفت في مكتبة (آشور بانيبعل) ، والتي ذكرت صراحةً قِصَّة الطُّوفان ، وذكرت أنَّه بانتهاء الطُّوفان ، عادت الحياة إلى الأرض فابتدأت بذلك العصور التَّاريخيَّة . وهذه الرُّقَم تعود إلى ٣٠٠٠ ق . م .

٢ً ـ اكتشاف العالم الأثري (وولي) طبقات كثيفة من الغِرين في مدينة أُور بعمق مترين ونصف ، وفيها آثار السُّكنى البشريَّة فوق هذه الطبقات وتحتها .

٣ً ـ وجود الأَصداف والأَسماك المتحجِّرة في أعالي الجبال ، وهذه الأَشياء لا تتكوَّن إلا في البحار ، فظهورها في رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها

مرَّة من المرَّات ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان طوفان بلغ ذراها ، وصعود الماء إلى الجبال لمدة أيام معدودة يكفي لوجود الأصداف والأسماك المتحجِّرة في قمم الجبال .

٤ً ـ حدوث الطوفان في أواخر العصر المطير (البلايستوسين) ، أي في ظروف مناخية وتغيرات جغرافيَّة غير الظروف والتغيرات الحالية .

٥ً ـ وجود قصة الطُّوفان في كتب الأقدمين من هنود وفرس وآشوريين .. يجعل الحدث حدثاً معروفاً عالمياً .

٦ً ـ في بعض أرجاء الكرة الأرضية اليوم ، مناطق جافة ، بل معدّل أمطارها صفر ملم في السنة ، ومع ذلك فقد يحدث فيها فيضانات أحياناً ، كما هو الحال في أسوان وسواحل البحر الأحمر الإفريقية حيث معدل المطر المعروف صفر ملم ، وقد حصلت عام ١٩٧٩ م سيول جارفة وفيضانات رهيبة تركت عشرات الضحايا وآلاف المشردين ، مع أن مدة هطول الأمطار في هذه المناطق الجافة لم يستمر إلا لبضع ساعات فقط(١) .

سقط شهاب في سيبرية عام ١٩٠٧ م فترك خلفه مساحة كبيرة عظيمة لا أثر للحياة فيها ، حتى الأشجار الضخمة الكبيرة جرفتها السُّيول ، وكل ذلك كان خلال دقائق ..

☆ ☆ ☆

هذا ، ونشرت (السَّفير) مقالة في عددها يوم الأحد ١٩٨٤/٨/٢٦ م ، على الصفحة الرَّابعة ، تحت عنوان : **(البعثة الأمريكيَّة إلى جبل أرارات ، تعلن**

---

(١) وهذا ماحدث بتاريخ ١٩٨٥/١٢/٢٣ م في منطقة (تبوك) و (العُلاَ) ، في المملكة العربيَّة السعوديَّة ، حيث جرفت السُّيول والفيضانات ماعترضها . تاركة وراءها أكثر من ثلاثين قتيلاً .

اكتشاف بقايا سفينة نوح) ، نظَّم الرحلة رائد الفضاء السَّابق جيمس أروين ، الذي أصبح متديِّناً بعدما سار على القمر عام ١٩٧١ م ، أثناء رحلة أبولو ١٥ ، وطالبت البعثة الحكومة التركية الإذن لها بإغلاق المنطقة التي عُثِرَ فيها على الاكتشاف على ارتفاع ١٥٨٥ متراً .

☆ ☆ ☆

وبعد هذا بالإمكان أن نقول ، إن المؤلف أخطأ في أمور ثلاثة في مقدماته ، فجاءت نتائجه واستنتاجاته بالتالي خطأ ، وهذه الأُمور الثلاثة هي :

١ ـ أن الطُّوفان عمّ الكرة الأَرضيَّة كلها ، وهذا خطأ قطعاً برأي جمهور العلماء .

٢ ـ الظُّروف المناخية الحاليَّة الَّتي اعتمد عليها المؤلف في قياساته وحساباته ، هي غيرها قبل آلاف السنين ، ومن الخطأ الفادح أن تعتمد في حسابات المؤلف ، فكمية الأمطار في أواخر العصر المطير (البلايستوسين) غيرها اليوم ، وهذه حقيقة علمية أضحت بدهية عند الباحثين ، فكيف تناساها ؟!؟

٣ ـ وطوفان نوح معجزة إلهيَّة لنوح عليه السَّلام . والمعجزة خرق للقوانين المألوفة لدى البشر ، والَّتي لا يمكن أن يخرقوها ، أما الله عزَّ وجلّ فلا تحسب عليه هذه القوانين ، هو الَّذي أبدع القوانين ، وهو القادر على تغييرها فتكون معجزة خارقة .

فالموضوع إذن ، موضوع إيمان أو لا إيمان .

فحين يفسِّر لنا الملحد الطوفان ، فإنه سيجانب الحقيقة حتماً ليثبت أمراً قرَّره وأراده مسبقاً ، لذلك تناسى اكتشافات علماء الآثار الحديثة في بلاد الرافدين ، وتناسى أنَّ الأمر (معجزة) ، ولو لم يكن معجزة لتكرَّر في كل عام ـ حسب حساباته ـ ولو لم يكن معجزة لما تفرَّد كحدث متميِّز معجز !!

والطوفان ذُكِر في القرآن العظيم - كما مرّ معنا - ولمحات القرآن الكريم العلمية أثبتها العلم الحديث ، بل جاء العلم الحديث مطابقاً لها تماماً[1] . ممَّا جعل العلماء من غير العرب يقولون بالسبق العلمي للقرآن في كل لمحاته الكونيَّة والطبيَّة والطبيعيَّة ...

يقول الدكتور (موريس بوكاي)[2] : « صحة القرآن التي لاتقبل الجدل تعطي النص، مكانة خاصة بين كتب التنزيل ، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لاالعهد القديم ولا العهد الجديد » .

ويقول عن (رواية الطوفان في القرآن)[3] : « يقدم القرآن رواية شاملة مختلفة ولا تثير أي نقد من وجهة النظر التاريخية ... القرآن يقدم كارثة الطوفان باعتبارها عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح ، وهذا يشكل الفرق الأساسي الأول بين الروايتين » ، رواية التوراة ، ورواية القرآن الكريم ، وهذا يجعلنا نقول بضرورة ، بل بحتمية دراسة الأُمور العلميَّة والتاريخيَّة الواردة في (الكتب المقدسة) ، على ضوء القرآن الكريم فقط ، دون سواه . فهو وحده لايحتوي على أيَّة مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث .

☆ ☆ ☆

(١) شرحنا ذلك بالتفصيل في كتابنا (الإنسان بين العلم والدِّين) ، ط دار الفكر بدمشق .
(٢) في كتابه القيم : (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) ط دار المعارف بمصر ١٥١
(٣) المرجع السابق ٢٤٦

﴿ فآمنوا بالله ورسوله النّبي الأمّي ﴾(☆)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَىٰ ﴾
[الأعلى ٦]

وقع بين يدي كتاب بعنوانين ، على جلده العنوان التّالي : (**مكّة والجزيرة العربيّة في العصر النّبوي**) ، وعلى صفحته الأُولى العنوان التالي : (**محمد وعصره**)[1] .

والّذي يقرأ أبحاث الكتاب السّبعة ، يجد الكتاب كلّه بعيداً عن عنوانه الأوّل والثاني ، باستثناء بحث واحد .

فالأبحاث الخمسة الأُولى بالعناوين التالية :

- الحياة والحضارة العربيّة الأُولى .
- الأنساب العربيّة وتاريخها .
- الحياة في مكّة قبل الإسلام .
- الحياة الاجتماعيّة في العالم قبل الإسلام .
- السّياسية الخارجيّة العربيّة .

(☆) الأعراف : ١٥٨

(١) تأليف عمر أبو النصر ، بيروت ، تشرين الأول ١٩٤٩ م ، توزيع : المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر .

أما البحث السَّابع ، فهو تحت عنوان : اليهوديَّة في بلاد العرب .. فالأبحاث السَّابقة ، وهي تشكل تسعة أعشار الكتاب ، بعيدة كل البعد عن العنوانَيْن ، اللَّذين اختارهما المؤلف لكتابه .

أما البحث السَّادس في الكتاب ، فهو المقصود ، فقد كان بعنوان : **هل كان محمّداً أُمياً ؟**

وعلى الرغم من المغالطات التاريخيَّة والفكريَّة الَّتي ضمها الكتاب ، وعلى الرغم من بُعدِ موضوعاته وأبحاثه ومضمونه عن عنوانَيْه .. فإنه ممَّا يلفت النَّظر فيه ، عنوان البحث السَّادس ، الَّذي جاء على النحو التالي : **هل كان محمّداً أُميّاً ؟ مصادر ونصوص جديدة)** وإذا بها ثلاثة أحاديث من البخاري ، هي حديث واحد بروايات ثلاث . وقدم المؤلف نصاً من (طبقات اللغويين والنُّحاة) للحافظ السيوطي ، ونصًّا آخر من (صبح الأعشى) ، ونصّاً من (فيض القدير) للمناوي ، ونصاً من (سمط الجوهر الفاخر) .. وكلها نصوص معروفة ، ناقشها المفسّرون قبل المؤلف بألف عام .

اتصف المؤلف في بحثه : « **هل كان محمّدٌ أُميّاً ؟** » بالتناقض والتراجع عن أفكار قررها في أوّل بحثه ، وتخلّى عنها في نهايته .. وهذا عرض للبحث بالتفصيل :

قال المؤلف : « كان أول من عرض لهذا البحث ، وروّج له وأعلنه وألَّف فيه أبو الوليد الباجي[(١)] ، من علماء الأندلس في القرن السَّادس الهجري ، فقد ذهب يقول إن النبي عليه السلام كتب بيده وفاقاً للحديث المذكور في البخاري ، فأنكر عليه القوم في عهده قوله هذا ، ولكنه قهرهم وغلبهم بالحجّة والبرهان » !!

---

(١) أبو الوليد الباجي « ٤٠٣ ـ ٤٧٤ هـ / ١٠١٢ ـ ١٠٨١ م » وهو : سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي ، فقيه مالكي كبير ، من رجال الحديث ، أصله من بطليوس ، ومولده في =

« ولقد وصف القرآن الرسول بأنه أمي في آيتين صريحتين : وردتا تباعاً في سورة الأعراف ١٥٧ ـ ١٥٨ .. فقال في الأولى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ عِنْدَهُمْ مَكْتُوباً في التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ﴾ إلخ .. وقال في الثانية : **﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ لاإِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾** .

ثم قال المؤلف : « ولم يرد في القرآن غير هاتين الآيتين بهذه الصراحة عن أميته !! ثم قال : « والسؤال الذي يخطر على بال الكاتب هو ما تعني كلمة (أمّي) على وجه التّحقيق ، لأنَّه من المعلوم أن هذه الكلمة في العصر الحاضر ، تعني الرجل الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ... » .

« وهذا ما كان معناها عند العرب في عصر الرسول ، ما في ذلك شك ، وقد صح عن الرّسول أنّه وصف قومه العرب فقال : إنّا أُمّة أُمِّيّة لا نكتب ولا نحسب .. » .

وتابع المؤلف قوله : « ويقول محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠ هـ) في تفسيره المشهور : « وأرى أنه قيل للأُمّي « أُمّي » نسبة له ـ بأنه لا يكتب ـ إلى أُمّه لأن الكتابة كانت في الرّجال دون النّساء » .

= باجة بالأندلس ، رحل إلى الحجاز سنة ٤٢٦ هـ ، فمكث فيها ثلاثة أعوام ، وأقام ببغداد ثلاثة أعوام ، وبالموصل عاماً ، وفي دمشق وحلب مدة ، وعاد إلى الأندلس ، فولي القضاء في بعض أنحائها ، وتوفي بالمرية ، من كتبه : (السراج في علم الحجاج) و (أحكام الأصول) و (التّسديد إلى معرفة التّوحيد) و (اختلاف الموطآت) و (شرح فصول الأحكام) و (بيان ما مضى به العمل من الفقهاء والحكام) و (الحدود) و (الإشارة) و (فرق الفقهاء) و (المنتقى) و (شرح المدونة) و (التعديل والتجريح لمن روى عنه البخاري في الصحيح) . (الأعلام ١٨٦/٣) .

ثم تابع المؤلف بحثه ، معتمداً بصراحة على كتاب المستشرق المعروف بدسائسه وشبهاته على ديننا وتاريخنا ألا وهو (نولدكه) ، وذلك في كتابه : (تاريخ القرآن ٥٨/١) ويقول المؤلف بعدها :

« **ومعنى هذا أيضاً أنّ رسول الله تعلّم الكتابة بعد هذا العهد فمتى كان ذلك ؟** » ويجيب المؤلف بما يلي : « أورد البخاري في صحيحه خبراً في ثلاث روايات يستفاد منه أنّ النّبيّ كتب بيده يوم عقد معاهدة الحديبية مع مندوب قريش سهيل بن عمرو سنة ست للهجرة ٦٢٨ م » .

ولكي ندرس هذه الروايات الثلاثة نثبت نصوصها بالحرف(١) ..

الرّواية الأولى

« حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غُندَرٌ ، حدثنا شُعبَة عن أبي إسحاق قال : سمعت البراءَ بن عازب رضي الله عنهما قال : لما صالح رسول الله ﷺ أهل الحديبية ، كتب عليٌّ كتاباً ، فكتب محمَّد رسول الله ﷺ ، فقال المشركون : لانكتُب محمَّد رسول الله ، لو كنت رسولاً لم نقاتلك ؟!. فقال لعليٍّ امحُهُ . فقال عليّ : **ماأنا بالذي أمحاه ، فمحاه رسول الله ﷺ بيده** ، وصالحهم على أن يدخل هو وأصحابه ثلاثة أيام ، ولا يدخلوها إلاَّ بجلبّان السِّلاح ، فسألوه ما جُلبَّان السلاح فقال : القِرابُ بما فيه(٢) » .

الرّوايّة الثانيّة

« حدثنا عبيدُ الله بن موسى ، عن إسرائيل عن أبي إسحاق ، عن البراء

---

(١) أوّلاً : الرّوايات أكثر من ثلاث بكثير .. ثانياً : مع أن المؤلف ذكر أنّه سيثبت الروايات بالحرف .. فقد كان ذلك مخالفاً للواقع .. لذلك أثبتت الروايات بنصها كما جاءت في صحيح البخاري ، كتاب الشعب ، ط ١٣٧٨ هـ .

(٢) صحيح البخاري ، ٢٤١/٣ ، الطبعة المذكورة في الحاشية الّتي سبقت .

رضي الله عنه قال : اعتمر النّبيُّ ﷺ في ذي القعدة ، فأبى أهلُ مكّة أن يدعوه يدخل مكّة ، حتى قاضاهم على أن يُقيم بها ثلاثة أيام ، فلما كتبوا الكتاب كتبوا هذا ماقاضى عليه محمّد رسول الله ﷺ ، فقالوا : لايُقر بها ، فلو نعلم أنّك رسول الله مامنعناك ، لكن أنت محمّد بن عبد الله ، قال : أنا رسول الله ، وأنا محمّد بن عبد الله ، ثم قال لعليٍّ : امحُ رسول الله ، قال : لا والله لا أمحوك أبداً ، **فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب : هذا ماقاضى عليه محمّد بن عبد الله** ، لا يدخل مكّة سلاح إلاّ في القراب ، وأن لا يخرجُ من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه ، وأن لا يمنع أحداً من أصحابه أراد أن يُقيم بها[1] .. » .

الرّواية الثّالثة

« بابُ عمرةُ القضاء ، ذكرَه أنس عن النّبيّ ﷺ ، حدثني عبيدُ الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال : لما اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة ، فأبى أهل مكّة أن يَدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام ، فلما كتبوا الكتاب ، كتبوا هذا ماقاضى عليه محمّد رسول الله ، قالوا : لا يُقِرُ بهذا ، لو نعلم أنّك رسول الله مامنعناك شيئاً ، ولكن أنت محمّد بن عبد الله ، فقال أنا رسول الله ، وأنا محمّد بن عبد الله ، ثم قال لعليٍّ : امحُ رسول الله ، قال عليٌّ : لا والله لا أمحوك أبداً ، **فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب ، وليس يحسن يكتب ، فكتب هذا ماقاضى محمّد بن عبد الله** لا يَدخل مكة السّلاح إلاّ في القِرَاب ، وأن لا يَخرج من أهلها بأَحدٍ إن أراد أن يتبعه ، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها[2] .. » .

هذه هي الرّوايات الثلاث التي أوردها المؤلف محرَّفة ، وقال : « أورد

---

(١) صحيح البخاري ٣/٢٤٠ ـ ٢٤١

(٢) صحيح البخاري ٥/١٧٩ ـ ١٨٠

البخاري في صحيحه خبراً في ثلاث روايات ، يستفاد منه أن النبي كتب بيده يوم عقد معاهدة الحديبية ، مع مندوب قريش سهيل بن عمرو[1] .. » ، والذي يتصفّح البخاري ، يجد روايات أُخرى .. أغفلها المؤلف ، منها الرواية التّالية :

روَاية أُخرى

« قال معمر ، قال الزهري في حديثه ، فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً ، فدعا النبي ﷺ الكاتب فقال النَّبيّ ﷺ : بسم الله الرّحمن الرّحيم . قال سهيل : أما الرّحمن فوالله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب باسمك اللّهم كما كنت تكتب ، فقال المسلمون : والله لا تكتبها إلاّ بسم الله الرّحمن الرّحيم ، فقال النَّبيّ ﷺ : اكتب باسمك اللّهم ، ثم قال : هذا ما قاضى عليه محمّد رسول الله ، فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنَّك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمّد بن عبد الله ، فقال النَّبيّ ﷺ : والله إنّي لرسول الله وإن كذبتوني ، **اكتب محمّد بن عبد الله**[2] .. » .

والذي يتفحص الرِّوايات الثلاث التي أوردها المؤلف ، يجدها رواية واحدة عن عبيد الله بن موسى عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، خصوصاً وأنَّ الرّاوي واحد هو البراء بن عازب رضي الله عنه[3] علماً أنَّ المؤلف لم يرجع إلى رواية مسلم مطلقاً ، ولو رجعنا نحن إلى رواية مسلم لرأيناها برواية البراء أيضاً ، ورواية مسلم لها أهميتها البالغة لمؤلف يبحث أو

---

(١) محمد وعصره ٨١

(٢) صحيح البخاري ٣/٢٥٥

(٣) وهو : البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن جشم بن مجدعة بن حارثة بن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي ، رده رسول الله ﷺ عن بدر ، استصغره (لصغر سنّه) ، وأول مشاهده أحد ، وقيل الخندق ، وغزا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة غزوة . (أسد الغابة ١/٢٠٥) .

يدرس هذا الموضوع ، موضوع أُمِّيَّة رسول الله . والرِّواية سنعرضها في حينها . بعد أن نقرأ ماكتبه المؤلف تحت عنوان (تعليقاتنا[1]) بعد إيراد الرِّوايات الثَّلاث :

لقد قرّر المؤلف ما يلي حرفياً :

« ومهما كان الخيال قوياً وسيعاً في تصوير هذه الحادثة ، فإنَّ هناك أمراً لاشك فيه ، وهو أن هذه الكلمات التي محاها رسول الله هي فاتحة الاتفاق وليس هناك شيء قبلها ، وهي كلمات معدودة لم تكن تتعدى السَّطر الواحد ، وإذا كان الأمر كذلك ، فليس ما يمنع أن يكون رسول الله قد محا السَّطر المكتوب كلَّه ، بعد أن تجافى الكاتب عن محو اسم رسول الله ، وأعاد الصحيفة بعد ذلك للكاتب ، ليكتب الاتفاق على الصيغة الجديدة الَّتي صار الاتفاق عليها ..

كما أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون رسول الله قد تعلم كتابة اسمه وغير اسمه ، في هذه الفترة الَّتي قضاها في المدينة ، خصوصاً ونحن نعلم أن رسول الله قد حث المسلمين على طلب العلم ، وكان من جملة ما اشترطه على الأسرى أن يعلِّموا أولاد المسلمين الكتابة والقراءة ، فلماذا لا يكون الرسول نفسه قد تعلم القراءة أُسوة بغيره من المسلمين .. **خصوصاً وأنَّ هناك نصوصاً تؤكد أنَّ رسول الله كان يقرأ ويكتب قبل وفاته ..؟**

وأما الأسانيد الَّتي تدل على أن رسول الله كان يقرأ قليلاً قبل وفاته ، وأنه كان يعرف الحروف وحسن تصويرها ، وينتقد كُتَّابه إذا لم يحسنوا هذا التصوير .. فقد جمعها الأُستاذ محمد عبد الرحمن الكتاني في كتابه (التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النَّبويَّة) فقال :

أولاً ـ خَرَّج الحافظ السيوطي في آخر (طبقات اللُّغويين والنُّحاة) حديثاً

(١) ص ٨٤ ومابعدها .. ونحن سنوردها دون تعليق حتى نهايتها ، ثم نفنِّدها ونبين مغالطاتها .

مسلسلاً عن زيد بن ثابت كاتب الوحي قال : قال رسول الله ، إذا كتبتم بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، فبين السِّين فيه ..

ثانياً ـ ورد في (صبح الأعشى) نقلاً عن محمد بن علي المدائني وساق بسنده إلى أنس بن مالك أن معاوية بن أبي سفيان كان يكتب للنَّبيِّ ، فكان إذا رأى من النَّبيِّ إعراضاً وضع القلم في فيه ، فنظر إليه النَّبيُّ وقال : يامعاوية : إذا كنت كاتباً فضع القلم على أُذنك فإنه أذكر لك ولي . وزاد في (الفيض) قال عياض : وفي هذا وشبهه دلالة على معرفته ﷺ حروف الخطِّ وحسن تصويرها ..

ثالثاً ـ قال القاضي في (الشِّفاء) إثر حديث : « ضع القلم على أُذنك » .. هذا مع أنَّه ﷺ كان لا يكتب ولكنه أُوتي علم كلَّ شيءٍ حتى وردت آثار بمعرفته حروف الخطِّ ثم حسن تصويرها . كقوله في الحديث الذي يروى عن معاوية أنَّه كان يكتب بين يديه ، فقال له : « ألق الدواة ، وحرّف القلم واقم الباء وجرِّس السِّين ، ولاتعوِّ الميم وحسِّن الله ، ومدّ الرَّحمن ، وجوِّد الرَّحيم » .

رابعاً ـ جاء في (سمط الجوهر الفاخر) ، كتب ﷺ بيده كتباً لأهل الإسلام في الشَّرائع والأحكام منها كتابه ﷺ في الصَّدقات ، كان عند أبي بكر ، وكتابه ﷺ في نصاب الزكاة وغيرهما الذي كان عند عمر ، وكتابه ﷺ إلى أهل اليمن في أنواع من الفقه وأبواب مختلفة ، وهو كتاب جليل واحتج الفقهاء كلُّهم بما فيه من مقادير الديات ..

خامساً ـ ذكر الحافظ ابن دحية كما في خصائص القطب الخضيري عن عمر بن شيبة : إن مما استدل به (الباجي) ومن وافقه ـ على مقالته كون النَّبيِّ كتب بيده يوم الحديبية ـ ماأخرج ابن شيبية عن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : « مامات النَّبيُّ حتى كتب وقرأ » . قال عجالة : فذكرت ذلك للشافعي فقال : صدق قد سمعنا قوماً يذكرون ذلك ..

سادساً ـ قال المناوي في (فيض القدير) على حديث : « وضع القلم على أذنك » فهو أذكر للمملي ، وأخذ القاضي من قصة الحديث أنه ﷺ كتب بعد أن لم يكن يحسن الكتابة ، ثم إنه أشار إلى مذهب الباجي ومن عارضه قال : « وانتصر له بأن الأُميَّة لا تنافيه ، بل يقتضي تقييده بالنفي بما قبل ورود القرآن وبعدها تحقَّقت أُمّيّته وتقررت معجزته لا مانع من كتابته بالتعلم فتكون معجزة أُخرى » .

وروى ابن شيبة عن عوف : « **ما مات ﷺ حتى كتب وقرأ**[1] .. » ثم قال المؤلف بالحرف الواحد : « وهذه النصوص والأسانيد جميعها لا تؤيد حجة من يقول بأن رسول الله كان يكتب بكل ما في الكلمة من معنى ، وإنما تدل على أن رسول الله كان يحسن كتابة اسمه مثلاً ، وأنه كان يُعنى بكتابة البسملة عناية خاصة ، دون أن تكون عنايته شاملة لغير ذلك من ألوان الكلام .. ويؤيد ذلك النص الأول والثاني والثالث ، إذ ليس فيها إلاّ إشارة لحروف البسملة ، وأما لغيرها فلا ...

وأما النصُّ الرَّابع فيردّه ما عند البخاري وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه ، ففي هذه المصادر أن أبا بكر كتب لأنس وختم الكتاب بخاتم النَّبيِّ .. وقد ساق الحديث مالك في الموطَّأ .

وأما قولهم كتب النَّبيُّ كذا ، فلا يدل على أنه كتب ، ولكن على أنَّه أمر بالكتابة ، كما هو الواقع والمفروض .

وأما النَّصّان الخامس والسَّادس ، فليسا من القوة بحيث يطمئن الباحث المعاصر إلى أن رسول الله كان يحسن الكتابة أو القراءة ، أو تجاوز ما قدمناه سابقاً

(١) محمد وعصره ٨٥ ـ ٨٦

من أنه كان يحسن كتابة اسمه وما يساوق اسمه من حروف وجمل ..[١] » .

☆ ☆ ☆

هذا التَّخبُّط في الجمع ثمَّ التَّصنيف دون تمحيص ، وهذا الجزم ثم التَّراجع ، أو التقرير لرأي ثم نقضه .. يدل على أنَّ الباحث الذي عالج الموضوع ليس هدفه حقيقة ، ولو كانت الحقيقة هدفه لذكر ولو مرة واحدة الآية الكريمة : ﴿ **وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ ، [العنكبوت ٤٨] هذه الآية الشَّريفة ، الَّتي لا يبدأ إنسان منصف ببحث هذا الموضوع ، إلاّ بدأ بها قبل غيرها ، فهل نسيها المؤلف ، أم تغافل عنها لأنَّها تنقض كلَّ ماقرَّره ؟!؟

وقبل أن نبدأ في تقرير وجهة نظرنا المستمدة أوَّلاً من كتاب الله العظيم ، وثانياً من الحديث الشريف والسُّنَّة المطهَّرة .. نقول :

إن المستشرقين يقرِّرون أنَّ القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ ، وقد عالجنا هذا الرأي بالتفصيل في كتابنا (الإسلام في قفص الاتهام[٢]) .. حتى أن نولدكه[٣] وكايتاني[٤] أصرَّا على أن النبي ﷺ كان يقرأ ويكتب .. فإنْ كنا مسلمين ، نأخذ تفسير آيات الكتاب العظيم ، الَّذي نزل بلسان عربي مبين ، ونأخذ سيرة نبيِّنا من المستشرقين ، ومعظمهم من الصَّليبيين الَّذين امتهنوا الدسَّ الرخيص ، والافتراء الواضح .. فياضياع ديننا وذاتيتنا .. بل ياللخزي والعار .. وياللهو والعبث والتجريح بتراثٍ مقدس .

(١) محمد وعصره ٨٦ ـ ٨٧

(٢) « الجلسة الأولى ٢١ في الطبعة الرابعة ، تحت عنوان : (مصدر القرآن) .

(٣) تاريخ القرآن ، ٥٨/١

(٤) في الجزء الأول من كتابه : (تاريخ الإسلام) .

هذا من ناحية .. ومن ناحية أُخرى ، مؤرخ معاصر ، عرفناه مسلماً ملتزماً بدينه قبل دراسته في أُوربة ، وبعد عودته كأنه بُهِرَ بأفكار المستشرق الذي تتلمذ على يديه ، وانطبعت أحوال المستشرق في نفسه ، ففسّر هذا المؤرخ كلمة ﴿ الأُمِّيين ﴾ الّتي وردت في القرآن الكريم بأنَّها للدلالة على غير (الكتابيين) ، وأن تعبير (الأُمِّي) لا تعني أُميَّة الكتابة والقراءة .. ولا سيا .. أن هذه الكلمة ﴿ الأُمِّيين ﴾ استعملت في القرآن الكريم للدلالة على العرب بعد ذكر الّذين أوتوا الكتاب : ﴿ **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ [آل عمران ٢٠]

علماً أن كلمة (أُمِّيين)[١] فسرها ﷺ عندما قال : « **نحن أُمَّة أميُّون لا نحسب ولا نكتب** »[٢] . فمعنى الأُمِّيَّة واضح جلي في هذا الحديث الشريف لا يحتاج إلى اجتهاد ومواربة .

ولو تذكّر الّذين يخوضون في هذا البحث لإثبات قراءة وكتابة النّبيِّ ، أنَّ ما يقولونه قد يكون وجِّه إلى النّبي ﷺ مباشرة ، وأن القرآن قد رد عليه وعلى زيفه علناً وبصراحة قطعية ، وأنَّ أصحابه وأخصّاءه ﷺ كانوا يتلون هذا الرد الصريح القطعي ، لوفرّوا على أنفسهم التّعب ، ولما عرضوها لتهمة الغرض والعناد ، بل الكذب والمكابرة .. فلا يمكن أن يعلن النّبيُّ ﷺ بلسان القرآن الكريم ، وبأسلوب قاطع صريح أنَّه لا يقرأ ولا يكتب لو كان يقرأ ويكتب ، ولا سيا لو كان أصحابه يعرفون ذلك فيه ، لأنَّه يثير حالاً شك هؤلاء في ربانية

---

(١) ورد في (الملل والنحل) للشهرستاني ، ٢٠٨/١ : « الفرقتان المتقابلتان قبل المبعث هم أهل الكتاب والأُميُّون ، والأُميُّ من لا يعرف الكتابة ، وكانت اليهود والنصارى بالمدينة ، والأُميون بمكّة » .

(٢) مسند الإمام أحمد ١٢٢/٢ عن ابن عمر رضي الله عنهما .

القرآن العظيم ، وصـدق النَّبيِّ الكريم ﷺ ، وهـذا وذاك من الخطـورة بمكان عظيم .

☆ ☆ ☆

مَاذَا في صَحِيح مُسلِم ؟

أورد مسلم في باب صلح الحديبية ، الأحاديث التَّالية[1] :

١ ـ « حدَّثني عبيد الله بن معاذ العنبري . حدثنا أبي ، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق ، قال : سمعت البراء بن عازب يقول : كتب عليّ بن أبي طالب الصلح بين النَّبيِّ ﷺ وبين المشركين ، يوم الحديبية ، فكتب « هذا ما كاتب عليه محمَّد رسول الله » فقالوا : لاتكتب رسول الله ، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك ، فقال النَّبيُّ ﷺ لعليٍّ : « امحُهُ » فقال : ما أنا بالذي أمحاه ، فمحاه النَّبيُّ ﷺ بيده ، قال : وكان فيما اشترطوا أن يدخلوا مكة فيقيموا بها ثلاثاً ، ولا يدخلها بسلاح ، إلاَّ جُلبَّان السِّلاح[2] .

٢ ـ حدثنا محمد بن المثنى وابن بشَّار ، قالا : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق ، قال : سمعت البراء بن عازب يقول : لما صالح رسول الله ﷺ أهل الحديبية ، كتب عليٌّ كتاباً بينهم ، قال : فكتب « محمَّد رسول الله » ثم ذكر بنحو حديث معاذ ، غير أنه لم يذكر في الحديث « هذا ما كاتب عليه » .

٣ ـ حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ، وأحمد بن جناب المصيصي ، جميعاً عن عيسى بن يونس (واللَّفظ لإسحاق) ، أخبرنا عيسى بن يونس ، أخبرنا

---

(١) انظر صحيح مسلم ، ط دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٩/٣ ـ ١٤١٠ ـ ١٤١١

(٢) جُلبَّان السِّلاح : جراب من الجلد ، يوضع فيه السَّيف مُغْمَداً ، ويطرح فيه الراكب سوطه وأداته ويعلقه في الرَّحل .

زكريا عن أبي إسحاق ، عن البراء قال : لما أحضر النبيُّ ﷺ عند البيت ، صالحه أهل مكَّة على أن يدخلها فيقيم بها ثلاثاً ، ولا يدخلها إلاَّ بجلبَّان السِّلاح ، السَّيف وقرابه ، ولا يخرج بأحد معه من أهلها ، ولا يمنع أحداً يمكث بها ممن كان معه ، قال لعليٍّ : « اكتب الشَّرط بيننا ، بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، هذا ماقاضى[1] عليه محمَّد رسول الله » فقال له المشركون : لونعلم أنَّك رسول الله تابعناك ، ولكن اكتب : محمَّد بن عبد الله ، فأمر عليّاً أن يمحاها ، فقال عليٌّ : لا ، والله لاأمحاها فقال رسول الله ﷺ : « أرني مكانها » ، **فأراه مكانها ، فمحاها ، وكتب « ابن عبد الله » فأقام بها ثلاثة أيَّام .. »** .

٤ ـ حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا عفَّان ، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت ، عن أنس ، أن قريشاً صالحوا النَّبيَّ ﷺ ، فيهم سهيل بن عمرو ، فقال النَّبيُّ ﷺ لعليٍّ : « اكتب بسم الله الرَّحمن الرَّحيم » قال سهيل : أمَّا باسم الله ، فما ندري مابسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، ولكن اكتب مانعرف : باسمك اللَّهم ، فقال : « اكتب من محمَّد رسول الله » قالوا : لوعلمنا أنك رسول الله لاتبعناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال النَّبيُّ ﷺ : « اكتب من محمَّد بن عبد الله » فاشتَرَطوا على النَّبيِّ ﷺ أنَّ من جاء منكم لم نردّه عليكم ، ومن جاءكم منا رددتموه علينا ، فقالوا : يارسول الله ! أنكتب هذا ؟ قال : « نعم ، إنَّه من ذهب منَّا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً » .

هذا ماجاء في صحيح مسلم ، فماذا جاء في كتب السيِّرة المعتمدة ؟

١ ـ جاء في (السِّيرة النَّبويَّة) لابن هشام « ثم دعا رسول الله ﷺ عليَّ بن

---

(١) ماقاضى : قال العلماء : معنى قاضى هنا ، فاصل و أمضى أمره عليه ، ومنه : قضى القاضي أي فصل الحكم وأمضاه ، ولهذا سمِّيت تلك السَّنة عام المقاضاة وعمرة القضيَّة ، وعمرة القضاء .. راجع صحيح مسلم ، ١٤١٠/٣ (هامش الصَّفحة) .

أبي طالب رضوان الله عليه ، فقال : اكتب : بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، قال : فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللَّهم ، فقال رسول الله ﷺ : اكتب باسمك اللَّهم ، فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمَّد رسول الله سهيل بن عمرو ، قال : فقال سهيل : لو شهدت أنَّك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « اكتب هذا ما صالح عليه محمَّد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين ، يأمن فيها النَّاس ويكف بعضهم عن بعض[(١)] .. » .

٢ ـ وجاء في (إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون) المعروفة بالسِّيرة الحلبيَّة ، ما يلي :

« ثم دعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، أي بعد أن كان أمر أوس بن خولة أن يكتب ، فقال له سهيل : لا يكتب إلاَّ ابن عمك عليّ أو عثمان بن عفان ، فأمر عليّاً رضي الله عنه فقال : اكتب باسم الله الرَّحمن الرَّحيم . فقال سهيل بن عمرو لا أعرف هذا ، أي الرَّحمن الرَّحيم ، ولكن اكتب باسمك اللَّهم ، فكتبها .. ثم قال ﷺ : « اكتب هذا ما صالح عليه محمَّد رسول الله سهيل بن عمرو » ، فقال سهيل بن عمرو : ولو شهدت أنَّك رسول الله ما خالفتك واتبعتك ، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمَّد بن عبد الله ؟ فقال رسول الله ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه : « امحه » ، وفي لفظ « امحِ رسول الله » ، فقال عليٌّ رضي الله عنه : ما أنا بالذي أمحاه ، وفي لفظ : لا أمحوك ، وفي لفظ : والله لا أمحوك أبداً ، فقال : أَرِنيهِ ، فأراه إيَّاه ، فمحاه رسول الله ﷺ بيده الشَّريفة ، وقال : **اكتب هذا ما صالح عليه محمَّد بن عبد الله سهيل بن عمرو** ، وقال : أنا والله رسول الله وإن كذبتموني[(٢)] .. » .

---

(١) « السِّيرة النبَّويَّة » لابن هشام ، ٢٠٣/٣ ، ط : دار الجيل ـ بيروت .

(٢) « السِّيرة الحلبيَّة » ٢٣/٣ ، ط : المكتبة التِّجاريَّة الكبرى ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

أما كتب التَّاريخ المعتمدة وهي : الطَّبري ، والكامل في التَّاريخ ، والبداية والنِّهاية ، فقد جاء فيها :

١ ـ في الطَّبري رواه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « ثم دعاني رسول الله ﷺ ، فقال : « اكتب بسم الله الرَّحمن الرَّحيم » ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : « باسمك اللَّهم » ، فقال رسول الله : اكتب : « باسمك اللَّهم » ، فكتبتها . ثم قال : اكتب : « هذا ما صالح عليه محمَّد رسول الله سهيل بن عمرو » ، فقال سهيل بن عمرو : لوشهدت أنَّك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين[1] .. » .

٢ ـ وجاء في الكامل في التَّاريخ : « فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب فقال : اكتب بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، فقال سهيل : لا نعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللَّهم فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمَّد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : لونعلم أنَّك رسول الله لم نقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال لعليٍّ : امحِ رسول الله فقال : لا أمحوك أبداً ، فأخذه رسول الله ﷺ ، وليس يحسن أن يكتب ، فكتب موضع رسول الله محمَّد بن عبد الله ، وقال لعليٍّ : لَتُبْلَيَنَّ بمثلها[2] ، اصطلحا على وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين يأمن النَّاس[3] .. » .

---

(١) تاريخ الطبري ٦٣٤/٢ ، ط : دار المعارف بمصر .

(٢) إشارة ومعجزة نبويَّة ، لقد حدث لعلي مثل هذا بعد صِفِّين ، فلما كتب الكاتب ، هذا ما صالح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رفض معاوية ذلك وقال لعمرو بن العاص : لا تكتب أنَّ علياً أمير المؤمنين لوكنت أعلم أنَّه أمير المؤمنين ماقاتلته .

(٣) الكامل في التَّاريخ ١٣٨/٢

٣ ـ أما في البداية والنِّهاية ، فقد جاء : « ثم دعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال : اكتب بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، قال : فقال سهيل لاأعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللَّهم ، قال : فقال رسول الله ﷺ : اكتب باسمك اللَّهم ، فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمَّد رسول الله سهيل بن عمرو ، قال : فقال سهيل : لوشهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : اكتب هذا ما صالح عليه محمَّد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن النَّاس ، ويكف بعضهم عن بعض(١) .. » .

☆ ☆ ☆

وَبَعْدُ ...

فإن الروايات التي ذكرناها في البخاري ومسلم ، وفي السِّيرة الحلبيَّة ، وسيرة ابن هشام ، وفي الطَّبري ، والكامل في التَّاريخ ، والبداية والنِّهاية ، كلها روايات محمولة بعضها على بعض ، تفسر بعضها بعضاً . وأوضح دليل على أُمِّيَّته ﷺ قوله لعلي : « **أرني مكانها** » ، فلو كان قارئاً كاتباً لما قال ذلك ، ولعرف مكان عبارة « محمَّد رسول الله » ..

أما عبارة « كتب مكانها ابن عبد الله » وعبارة « ولا يحسن أن يكتب » ، والَّتي استدل منها أبو الوليد الباجي كتابة النَّبيِّ ﷺ ، فهمها مؤلف كتاب (محمَّد وعصره) أنَّ النَّبيَّ ﷺ قرأ وكتب في آخر حياته ، والحقيقة .. أن الباجي قال : كتب النَّبيُّ اسمه فقط في الحديبية كمعجزة ... ورأى ذلك زيادة في معجزاته ، واستظهاراً على صدقه ، وصحة رسالته ، وذلك أنه كتب من غير تعلُّم للكتابة ، ولا تعاطٍ لأسبابها ، وإنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها

(١) البداية والنِّهاية ١٦٨/٤

خطوط مفهومها ابن عبد الله لمن قرأها ، فكان ذلك خارقاً للعادة ، لا يزول عنه اسم الأُمِّي بذلك ، ولذلك قال الرَّاوي عنه في هذه الحالة : « ولا يحسن أن يكتب » ، فبقي عليه اسم الأُمِّي مع كونه قال كتب .

واسمه ﷺ كان مكتوباً على خاتمه ، فإذا عرف أين اسمه في صلح الحديبية فمحاه ، هل ينفي ذلك عنه الأُمِّيَّة ؟ ملايين الأُمِّيِّين اليوم يعرف شكل كتابة اسمه ويعرفون كتابته ، فهل انتفت عنهم الأُمِّيَّة ؟

وهنا نقول : إن الباجي عالم من متفقهة الأندلس ، لا يُطعن في دينه ، بل شهد له أهل عصره بالعلم والفضل والإمامة .. وكل ما قاله أنَّ النَّبيَّ كتب (ابن عبد الله) في صلح الحديبية ليس غير ، معجزةً تضاف إلى معجزاته ﷺ ، والباجي بشر يخطئ ويصيب .. والباجي ليس صحابياً رأى النَّبيَّ ﷺ في الحديبية ، والَّذي يريد أن يقرر كتابة النَّبيِّ وقراءته ينبغي أن يكون صحابياً رأى النَّبيَّ ، وهذا مالم يكن .

وعلى رأي الباجي[1] أنَّها آية خارقة ، فيقال هنا : قد تكون آية لا تنكر ، لولا أنَّها مناقضة لآية أُخرى ، وهي كونه أُمِّيّاً لا يكتب ، وبكونه أُمِّيّاً في أُمَّة أُمِّيَّة (لا تكتب ولا تحسب) ، فكيف يطلق الله تعالى يده ، فيكتب وتكون آية ، وإنَّما الآية ألاَّ يكتب ، والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً ، وإنَّما معنى كتب وأخذ القلم ، أي أمر من يكتب من كُتَّابه ، وكان من كَتَبَةِ الوحي بين يديه ﷺ ستة وعشرون كاتباً .

وما سبق ذكره ابن كثير في تفسيره[2] أيضاً حيث قال بعد الآية الكريمة : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت ٤٨] ،

---

(١) ومن برأيه مثل : أبو عمرو السَّمَّاني ، وأبو ذر عبد الله بن أحمد الهروي .

(٢) ٤١٧/٣

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دائماً إلى يوم الدّين ، لا يحسن الكتابة ، ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده ، بل كان له كُتّاب يكتبون بين يده الوحي والرّسائل إلى الأقاليم : ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنّه ﷺ كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمّد بن عبد الله ، فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري : ثم أخذ فكتب ، وهذه محمولة على الرّواية الأُخرى : ثم أمر فكُتب[1] ، ولهذا اشتد النّكير من فقهاء المشرق والمغرب ، على من قال بقول الباجي ، وتبرؤوا منه ، وأنشدوا في ذلك أقوالاً[2] ، وخطبوا به في محافلهم ، وإنما أراد الرجل - أعني الباجي - فيا يظهر عنه أنّه كتب ذلك على وجه المعجزة ، لا أنّه كان يحسن الكتابة .

فكلمة : (كتب) عليه السّلام في صلح الحديبية .. كقولنا اليوم : بنى رئيس الجمهوريّة السّد ، بنى المحافظ دار الحكومة ، شقّ وزير المواصلات طريقاً .. والمعنى في اللُّغة واضح ، بنى : أيْ أمر ببنائه فَبُنِيَ له ، وأمر بشقّ الطّريق فَشُقّت الطّريق .. وهكذا .. وهذا يفسره صحيح البخاري بالذات في ١٦٢/٥ بقوله عن سهيل بن عمرو : « كاتبه رسول الله ﷺ » ، فكاتبه هنا ليس في العالم من يفهم منها - قديماً أو حديثاً - إلاّ أنّه أمر بمكاتبته !! خصوصاً والأحاديث الأُخرى تقول :

« أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والإسماعيلي في معجمه عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ..** ﴾ [العنكبوت ٤٨] قال : لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب ، كان أُمّيّاً »[3] .

---

(١) ورواية مسلم عن البراء بن عازب أيضاً ، وفيها « أرني مكانها » ، فلماذا هذه العبارة إذا كان يقرأ ويكتب ؟!

(٢) منها قولهم : بَرِئْتُ مِمَّنْ شَرَى دُنْيا بِآخِرَةٍ وَقالَ إنّ رَسُولَ اللهِ قَدْ كَتَبَا

(٣) انظر (الدّر المنثور في التّفسير بالمأثور) ، للسيوطي ١٤٧/٥

وأخرج البيهقي في سننه عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ .. ﴾ [العنكبوت ٤٨] قال : لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب »[١] .

وقال مجاهد : « كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمّداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ ، فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو .. ﴾ [العنكبوت ٤٨] قال النَّحاس : دليلاً على نبوّته لقريش ، لأنَّه لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يخالط أهل الكتاب ، ولم يكن بمكّة أهل الكتاب ، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ، وزالت الريبة والشّك »[٢] .

☆ ☆ ☆

أمّا الأحاديث الّتي استدل منها صاحب كتاب (محمّد وعصره) أنّه ﷺ قرأ وكتب . فالأمر فيها كما يلي :

« ذكر القاضي عياض عن معاوية أنّه كان يكتب بين يدي النّبيّ ﷺ ، فقال له : ألقِ الدواة ، وحرِّف القلم ، وأقِم الباء ، وفرِّق السِّين ، ولا تُعوِّر الميم ، وحسِّن الله ، ومدّ الرَّحمن ، وجوِّد الرَّحيم » قال القاضي : وهذا وإن لم تصح الرِّواية أنه ﷺ كتب ، فلا يبعد أن يُرزق علم هذا ، ويمنع القراءة والكتابة » .

ويتابع القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن) بعد ماسبق : هذا هو الصحيح في الباب ، أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً ، وإنّما أمر من يكتب ، وكذلك ما قرأ ولا تهجّى ، فإن قيل : فقد تهجّى النّبيّ ﷺ حين ذكر الدَّجال فقال : مكتوب بين عينيه « ك ا فـ ر » وقلتم إن المعجزة قائمة في كونه أُمّيّاً ، قال الله تعالى :

---

(١) المرجع السابق ١٤٧

(٢) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ١٣/٣٥١ ، ط : ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م (دار الكتاب العربي) .

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ .. ﴾ الآية [العنكبوت ٤٨] ، وقال ﷺ : « إنَّا أُمَّة أُمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب » ، فكيف هذا ؟..

فالجواب : ما نص عليه ﷺ في حديث حذيفة ، والحديث كالقرآن يفسِّر بعضه بعضاً ، ففي حديث حذيفة : « يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب » ، فقد نص في ذلك على غير الكُتَّاب ممَّن يكون أُمِّيّاً ، وهذا من أوضح ما يكون جليّاً »[1] .

أما جواب من قال : إن محمَّداً يقرأ ويكتب ، بدليل قول جبريل له : اقرأ .. فهو التالي :[2] :

أولاً لنتمعن في هذه الآيات :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ، [النحل ٩٨]

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، [الشعراء ١٩٨/١٩٩] .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ .. ﴾ ، [المزمل ٢٠] .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ، [الأعراف ٢٠٤] .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ ، [الانشقاق ٢١] .

---

(١) راجع ١٣/٣٥١

(٢) علماً أن جواب النبي ﷺ واضح « ماأنا بقارئ » ، ولكننا نتابع موضع الشبهة حتى الساذج منها .

هذه الآيات وغيرها عشرات توضح أن معنى القراءة في هذه الآيات الترداد من الذاكرة ، الترداد بعد الحفظ .. فقراءة النبي ﷺ ، قراءة ترداد وتلقين .. وإلقاء النص والمعنى في القلب ، في صفحة الروح ، ومن ثم قراءة اللسان ترداداً[1] ... وهذه الآيات توضح المراد بشكل رائع :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ، على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ ، [الشعراء ١٩٢/١٩٥] .

﴿ لَاتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ ، [القيامة ١٦/١٨] .

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ ، [الأعلى ٦] .. فالقراءة قراءة حفظ ، وتلقين ، ثم قراءته أي ترداد ما حُفِّظ وَلُقِّن ، فالقراءة قراءة ماأوحي إليه ﷺ .

هذا .. ومادرست سيرة في العالم بتفاصيلها ودقائقها كسيرة محمَّد بن عبد الله ﷺ ، لقد وصف المؤرخون وجهه الشَّريف ، ومافيه من فم أو أنف أو أسنان ونحوه ، وذكروا مشيته وضحكه وتبسُّمه .. وكيف كانت جلسته ، ووصفوا احتباءه واتكاءه واستلقاءه وتحريك يده حين كلامه ، وكيف أكل الخبز أو البقل أو القثاء .. وكيف شرب .. حتى أنهم ذكروا خُفَّه ونعله وناقته وبغلته وحماره .. فمن باب أَوْلى أن يذكر المؤرخون ماهو أهم ممَّا سبق لو وجد .. فلو قرأ وكتب ﷺ لذكروا كيف ومتى وأين كان ذلك .. ولذكروا اسم معلمه قبل ذكر نعله وناقته وحماره !!

☆ ☆ ☆

(١) إذا قلت لإنسان اقرأ ماتيسر من القرآن الكريم ، قد يكون أعمى ، فيقرأ قراءة حفظ ، ويقال أيضاً قرأت بين عينيه غدراً ، أي تفرست من ملامحه ، ويقال : قرأت في صفحة الكون أن الله هو الخالق .. فالكون كتاب مفتوح يقرأ فيه الكاتب والأُمي .. وهكذا ..

خاتمة

ياشباب العرب

« لافائدة من إيصاد الإسطبل إذا سُرِق الحصان » !.

ياشباب العرب ، أُخاطب منكم من يعتقد بالإسلام ماعتقده صاحب **(غزوة ذات النطاقين)** ، أخاطب من يظن بالإسلام ، ظنَّ صاحب **(غزوة ذات النطاقين)** .. فاسمعوا مني هذه الكلمات :

ليست البلية فقط في اعتقادكم الخاطئ ذاته ، البلية أعظم عندما نخبركم فتعلمون أنَّ ماتقولونه آراء مستشرقين صليبيِّين ومبشِّرين يكتبون الكذب والافتراء على هذا الدِّين الحنيف ، الَّذي ارتضاه الله لعباده .

ياشباب العرب .. ليست البليَّة في ظنكم الخاطئ ذاته ، البليَّة الكبرى أنْ تنطلي عليكم ادعاءات المستشرقين باسم البحث العلمي ، أو العلمية في البحث ، وتظنون أَنفسكم مازلتم تفتخرون بذاتيتكم وعروبتكم .

ياشباب العرب .. البليَّة في زهدكم بجواهر دينكم ، وبسعيكم وراء فتات الموائد الفكريَّة ، ثم تطلبون منا أنْ نعتقد ماترون ، ونصدِّق ماتقولون .. والمثل يقول (زُوَّان[1] البلد ولاقمح الغريب) ، فكيف إذا كان عندكم قمح استبدلتموه بزوان الغريب ؟!؟

---

(١) الزُّوان أو الزِّوان : حبٌّ يخالط القمح ، [اللِّسان : زون] .

ياشباب العرب .. إنكم تزهدون عن جهل بدينكم اليوم ، ويعتنقه اليوم أيضاً أناس من أكابر القوم ، وذلك عن دراسة واقتناع ومقارنة وتمحيص ..

أسمعتم ـ ياشباب العرب ـ شيئاً عن **الحاج إبراهيم خليل أحمد** ، القسيس الذي أشهر إسلامه ؟ أنا متأكِّد أنّكم لم تسمعوا بذلك ، فاسمعوا الآن :

كان قِساً مبشِّراً يحمل أرفع الشَّهادات في علم اللاَّهوت من كلية اللاَّهوت المصريّة ، ومن جامعة (برنستون) الأميركيّة ، وكانت مهمته تزييف حقيقة الإسلام ، والدَّعوة ضد مبادئه ، وفجأة أعلن انقلاباً ذاتياً على مهمَّته ، واتخذ موقفاً مغايراً لها تماماً ، واكتشف من خلال دراسته العميقة للإسلام أنَّه لو استمر في التَّبشير ضد الدِّين السَّماوي ، فسيكون كاذباً مُضَلِّلاً ومرَّ في أزمة صراع نفسي حتى نزل عليه نورُ الله فاهتدى وآمن ، وواجه كثيراً من التَّحدي والاضطهاد ، ولكنه صمد في المعركة حتَّى النهاية ، وأصبح اليوم من دعاة الإسلام والمؤمنين والمبشِّرين به .

الحاج إبراهيم خليل أحمد ، كان اسمه قبل إشهار إسلامه « القس إبراهيم خليل فيلوبوس » .. ويروي قِصَّته الكاملة مع الإسلام والإيمان فيقول :

أنا من مواليد الإسكندرية في ١٣ يناير (كانون الثاني) ١٩١٩ م ، درست في مدارس الإرساليّة الأميركيّة حتى الثَّانويَّة العامَّة ، ثم حصلت على دبلوم كليَّة أسيوط سنة ١٩٤٢ م ، وتخصَّصت في الدِّراسات الدِّينيَّة تمهيداً لدخولي كليَّة اللاَّهوت ، ولم يكن الالتحاق بكلية اللاَّهوت بالأمر السَّهل ، ولا يستطيع أي حاصل على الدُّبلوم أن يلتحق بهذه الكلية ، بل لابد من تزكية الكنيسة ، واجتياز عديد من الاختبارات الدَّقيقة . ولقد حصلت على تزكية كنيسة العطَّارين بالإسكندرية ، كما حصلت على تزكية المجمع الكنسي للوجه البحري بعد إجراء اختبارات عديدة ودقيقة ، للتَّعرف على مدى استعدادي لأن أصبح

رجل دين .. ثم حصلت على تزكية المجمع (السّنودس) ، وهو يضم مجموعة قساوسة من السُّودان ومصر ، ويعتبر كمؤتمر ديني عام .. وقد قرر السنودس الموافقة على دخولي كليَّة اللاَّهوت سنة ١٩٤٤ م بالقسم الدَّاخلي ، ودرست على أَيدي أَساتذة أمريكيين ومصريين ، وتخرَّجت في عام ١٩٤٨ م .. فَعُيِّنت في بلدة (أَسْنَا) بالوجه القِبْلي في مصر . وسجلت رسالةً في العام نفسه عن طريق الجامعة الأَمريكيّة في القاهرة ، **وكانت رسالتي عن العمل التّبشيري بين المسلمين ..** وقد بدأ تعرُّفي على الإسلام من خلال دراستي له في كليَّة اللاَّهوت ، **فنحن في هذه الكليَّة ، ندرس الإسلام وكلّ الأَساليب الَّتي نستطيع من خلالها زعزعة إيمان المسلمين به ، وتشكيكهم فيه .**

وفي سنة ١٩٥٢ م حصلت على الماجستير من جامعة برنستون الأَميركيَّة ، وعُينت أُستاذاً في كليَّة اللاَّهوت بأَسيوط ، **وكنت أقوم بتدريس الإسلام والمغالطات والافتراءات الشَّائعة الَّتي يرددها أَعداؤه والمبشرون ضده** ، وقد رأيت في هذه الفترة أن أوسِّع دراستي لكل جوانب الإسلام ، وقررت ألاّ أكتفي بالاطلاع على كتب المبشرين والمستشرقين التي تقتصر على الطعن في الإسلام ، ولثقتي بنفسي وحبي للعلم قررت أن أقرأ وجهة النّظر الأُخرى ، وأَدرس القرآن بتعمق . وكان هدفي من هذا كله أن أُصبِح متمكّناً من مادتي تماماً بحيث أَستطيع دفع الحُجَّة بالحجة ، وأكون قادراً على أن أُضيف إلى حجج المبشِّرين ضد الإسلام حججاً جديدة من خلال دراستي وتعمُّقي .. ولكن النتيجة في الواقع كانت عكسيَّة ، فقد بدأ موقفي يهتز ، وبدأت أَشعر بصراع داخليٍّ عنيف بيني وبين نفسي ... **واكتشفتُ أَنّ ما درسته من قبل وما كنت أُبَشِّر به وأقوله للنَّاس كله زيف وكذب ..** لكنّني لم أستطع مواجهة نفسي ، وحاولت التغلب على هذه الأَزمة الداخليَّة والاستمرار في عملي ، وفي سنة ١٩٥٤ م نُقلت إلى أَسوان سكرتيراً عامّاً للإرساليَّة الأَلمانيَّة ـ السُّويسريَّة ، وكانت هذه وظيفة صورية ، أَما حقيقة مهمتي فكانت التبشير ضد الإسلام في الصَّعيد الأَقصى ، وخاصَّة بين المسلمين ..

وفي هذه الأثناء عُقد مؤتمر تبشيري في فندق (كتراكت) بأسوان ودعيتُ للكلام فيه ، وتكلمت يومها كثيراً ، ورددت كل المطاعن المحفوظة ضد الإسلام .. وبعد أن انتهيت من كلامي ، عاودتني أزمتي الذّاتيّة ، وبدأت في مراجعة موقفي مرة أُخرى ، وعدت أسأل نفسي : لماذا أقول هذا وأفعله ، وأنا أعلم أنّني كاذب ، وأنّ هذا الّذي أقوله ليس هو الحق .. واستأذنت قبل انتهاء المؤتمر ، وخرجت وحدي متجهاً إلى بيتي ، كنت مهزوزاً متأزماً للغاية ، كنت أسير في حديقة (فريال) ، واستمعت ساعتها للآية الكريمة : ﴿ **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرآناً عَجَباً ، يَهْدِي إِلَى ٱلرُّشْدِ ، فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ..** ﴾ ، حتى قوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً** ﴾ ، [الجن ١ و٢ و١٣] .

في تلك الليلة شعرت براحة نفسية عميقة ، عدت إلى بيتي وقضيت اللّيل كله وحدي في المكتبة أقرأ القرآن ، وسألتني زوجتي عن سر سهري وعمّا أقرأ ، فطلبت إليها أن تتركني وحدي ، ووقفت طويلاً عند الآية الكريمة : ﴿ **لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا ٱلْقُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ** ﴾ ، [الحشر : ٢١] . كما وقفت طويلاً عند الآية الكريمة : ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّاهِدِينَ ، وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّالِحِينَ** ﴾ ، [المائدة : ٨٢ ـ ٨٤] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلأَغْلاَلَ**

﴿ ... الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ، [الأعراف : ١٥٧] .

في تلك الليلة اتخذت قراري النِّهائي ، وفي الصَّباح تحدثت مع زوجتي ، وكان لي منها ثلاثة أولاد وبنت ، لكن زوجتي بمجرد أنَّها سمعت أنَّني ميال للإسلام وأفكر في إشهار إسلامي ، صرخت واستغاثت برئيس الإرسالية (مسيو شافتز) ، وهو سويسري ، وكان رجلاً داهية ، وقد سألني عن حقيقة موقفي فأكدت له ما أخبرته به زوجتي ، فقال لي : اعتبر نفسك موقوفاً عن العمل حتى نرى حقيقة ما أصابك ، فقلت له : بل هذه هي استقالتي . وحاول أنْ يقنعني بتأجيلها ، لكنني صمَّمت عليها ، فأشاع في النَّاس أنَّني أُصبت بالجنون ، وتعرضت وقتها لمحنة شديدة واضطهاد ، فاضطررت لترك أسوان نهائياً ، والعودة إلى القاهرة .

وفي القاهرة .. تعرفت على أُستاذ فاضل ساعدني كثيراً على اجتياز محنتي دون أن يعرف شيئاً عن قصتي ، وكان يعاملني على أنني مسلم ، لأنني قدمت نفسي إليه مسلماً ، رغم أنني لم أكن قد أشهرت إسلامي بعد .. وكان هو الدُّكتور محمَّد عبد المنعم الجمال ، الذي كان وكيلاً لوزارة الخزانة (المالية) ، وكان مهتماً بالدِّراسات الإسلاميَّة ، وكان يريد إعداد ترجمة للقرآن لينشرها في أمريكة ، واستعان بي لإتقاني اللُّغة الإنكليزية ، ولأنني حاصل على الماجستير من جامعة أمريكية . وعرف أيضاً أنني أقوم بعمل دراسة مقارنة للقرآن والتَّوراة والإنجيل ، وتعاونَّا معاً في هذه الدِّراسة ، وفي ترجمة القرآن . ولما عرف أنني استقلت من عملي في أسوان ، وأنَّني لا أعمل ، ساعدني على إيجاد عمل في شركة (استاندارد ستيشنري) في القاهرة ، واستقرت أُموري في ذلك الوقت ، ولم أكن أتحدث مع زوجتي في موضوع إشهار إسلامي ، فاعتقدت أنَّني نسيت هذه الحكاية ، وأنَّها أزمة انتهت .. لكني كنت أعرف أن إشهار إسلامي رسميَّاً يحتاج إلى إجراءات

طويلة معقدة ، ومعركة رأيت أن أؤجلها إلى وقت لاحق حتى تستقر أُموري ، وحتى أَنتهي من دراستي المقارنة للقرآن والإنجيل والتَّوراة ، وقد انتهيت منها فعلاً في عام ١٩٥٩ م كما أنَّ أُموري الماديَّة والمعيشيَّة كانت قد استقرت حيث كنت قد استقلت من الشَّركة ، وأنشأت مكتباً تجارياً لاستيراد الأَدوات الكتابية ، ونجحت فيه ، ووهبني الله رزقاً حلالاً ، كان يكفيني ويزيد عن حاجتي .

وقررت حينئذ أن أُشهر إسلامي رسميّاً ، وفي يوم ٢٥ / ١٢ / ١٩٥٩ م أَرسلت برقية للدكتور « طومسون » رئيس الإرسالية الأَمريكيَّة في مصر أَخبرته فيها بأَنّي اعتنقت الإسلام ، كما تقدمت في اليوم نفسه بطلب إلى محافظة القاهرة لاتخاذ الإجراءات الرَّسميَّة لإشهار إسلامي ، وأَخبرت صديقي الدكتور الجمال بالأَمر ، وقصصت عليه قصتي كاملة لأَول مرَّة فَذُهِل ..

أَخطرت المحافظةُ الكنيسةَ لانتداب أَحد القساوسة ، وحددوا لي جلسة للمناقشة ، ولكن قبل موعد الجلسة بثلاثة أَيَّام ، عدت إلى بيتي فوجدت سبعة من كبار الشَّخصيات المسيحيَّة ينتظرونني في البيت ، وتحدثوا إليَّ طويلاً في الأَمر ، وبلهجة لَيِّنة وكثير من التَّرغيب ، أَما أنا فكنت قد انتهيت إلى قرار وتصميم ، فرفضت كل عروضهم وقلت لهم إنَّني لو كنت أَسعى لمغنم لما آمنت ، وإن عقيدتي وإيماني فوق كل العروض والمغريات .. قالوا لي : كيف تترك دينك ؟

قلت لهم : **إن الإسلام هو الذّروة الدّينيّة الّتي أرادها الله للإنسانية كافة ، وأنتم تعرفون ذلك ..** فبدأ بعضهم يهاجم الرَّسول بكلمات نابية ، وانقلبوا عليَّ بتهديدات أَولها أن الزَّوجة تترك البيت ، فقلت لهم : الزَّوجة حرة .. لكنهم استمروا في تهديدي بالقتل ، وطلبوا مني إسقاط طلبي وإنهاء الموضوع .

وفي اليوم التالي ، جاءني قسيس أَكبر مني سِنّاً ، وكانت له صلة وثيقة بي ،

وظل يبكي ، فقرأت عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .. ﴾ ، [المائدة : ٨٣] ، وقلت له : أولى بك أن تبكي خشوعاً لله عند سماع القرآن ، وأن تؤمن بالحقِّ الذي تعرفه وتنكره ، فقام وتركني بعد أن يئس وأدرك أن لا فائدة .

وعندما ذهبت إلى جلسة المحافظة ، علمت أنَّه هو المكلَّف بحضور الجلسة ، لكنه أرسل يعتذر عن عدم الحضور بسبب المرض ، ويطلب تأجيل الجلسة ، وظل يتغيب عن الجلسة بحجة المرض ويقصد التعطيل ، لكن اللجنة كان من حقها أن تشهر إسلامي إذا تغيب القسيس أكثر من جلستين ، وبالفعل وافقوا على إشهار إسلامي ، وكان ذلك في يناير ١٩٦٠ م .

زوجتي غابت ست سنوات عن البيت ، لكن أولادي جميعهم انضموا إلى صَفِّي وأشهروا إسلامهم ، وكان أكثرهم حماساً ابني الكبير إسحاق ، الَّذي غيَّر اسمه إلى أُسامة ، ثم ابني يوسف ، وبقي اسمه على ماهو عليه ، وابني صموئيل الذي أصبح اسمه جمال ، ثم ابنتي ماجدة وسميناها نجوى ، وأسامة اليوم دكتور في الفلسفة ، ويعمل استاذاً في جامعة السُّوربون بباريس في قسم الدِّراسات الشَّرقيَّة ، ويقوم بتدريس علم النفس ، وله كتابات في مجلة (لوموند) الفرنسية .

زوجتي لم تشهر إسلامها ، لكنها تتعامل معنا كمسلمة ، تصوم رمضان معنا ، لأن أولادي جميعاً يصومون ويصلون ، وابنتي نجوى في كليَّة التجارة ، ويوسف دكتور صيدلي ، وجمال مهندس ..

أَصدر الحاج إبراهيم خليل أَحمد حتى الآن عدة كتب تكشف عن حقائق الإسلام ، وعن أُساليب المبشرين والمستشرقين ضده ، والمنشور منها بالفعل :

١ ـ محمّد في التّوراة والإنجيل والقرآن ، وهي الدّراسة المقارنة للأديان الثلاثة .

٢ ـ المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي .

٣ ـ الاستشراق والتّبشير وصلتهما بالإمبريالية العالميّة .

٤ ـ المسيح إنسانٌ لا إله .

٥ ـ الإسلام في الكتب السّماوية .

٦ ـ المخطط التبشيري والاستعمار .

٧ ـ اعرف عدوك .. إسرائيل عقيدة وسياسة .

وختم الحاج إبراهيم خليل أحمد حديثه الّذي اختصرنا منه كثيراً بقوله : « عموماً لو أردت أن أتحدث عمّا جعلني أعتنق الإسلام لاحتاج الأمر لمجلدات ، أتحدث فيها عن كل ما في الإسلام ، لكنني أكتفي بقولي الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله »[١] .

فيا شباب العرب .. هل أسلم هذا الإنسان عن جهلٍ أمْ عن علم ودراسة ؟

☆ ☆ ☆

ـ كما نشرت صحيفة الإسراء الأردنية في صفحتها السادسة (جمادى الثانية ١٣٩٥ هـ) تحت عنوان : (قسيس يعتنق الإسلام بعد عشرين سنة في الكنيسة) ، ورد النّبأ من كوالا لمبور (ماليزيا) ، وفيه أعلن الدكتور (جوهانز ليهان) ، قسيس الكنيسة الكاثوليكية في كوالالمبور إعتناقه الإسلام ، وذلك بعد أن قضى ٢٠ عاماً من حياته في خدمة المسيحيّة .

وأذاع الدكتور (جوهانز) أنّ اسمه الجديد قد أصبح الدكتور يحي

---

(١) عن (القبس) الكويتية ، الاثنين ٥ رمضان ١٣٩٦ هـ / ٣٠ أغسطس (آب) ١٩٧٦ م ، العدد ١٥٤٠

عبد الرحمن ، وقال للصحفيين في كوالالمبور : إنه اتخذ هذا القرار بعد أن قضى سنوات يدرس كل ما يتعلق بالدين الإسلامي ، وقال الدكتور يحي : لقد كنت محظوظاً حقاً ، فبعد سنوات من الدِّراسة المقارنة في الأديان تأكد لديّ أنَّ الإسلام دين ذو قوة روحانية تقود الإنسان إلى الوحدة الأخوية ، وترشده إلى الله ، وتؤكد له وحدانية الخالق .

☆ ☆ ☆

وشبهات المستشرقين ، وافتراءات المبشِّرين الَّتي ترددونها **- يا شباب العرب -** أما رأيتم كيف تتلاشى أمام العلم والحقيقة ؟ هل درستم إسلامكم قبل التهجم عليه ؟ اللهم لا وألف لا ...

لقد نقلت وكالات الأنباء ، والصحف العالمية إسلام القرية الإنكليزية (فرديش) بكاملها ، رافضة بهذا حياة المدنيَّة الغربيَّة الزائفة التي تسيطر على دول الغرب ، ولقد كان السَّبب في دخولهم بعد هداية الله لهم اثنين من شباب القرية أسلما وأخلصا في إسلامها ، وتمكنا من إقناع باقي أفراد القرية بالإسلام .

☆ ☆ ☆

كما اعتنق الإسلام قبل ذلك الحاج عمر بنجو رئيس جمهورية الجابون .. دليل جديد على أن الإسلام دين الفطرة .. وها هو يزحف بجهد ضئيل أو دون جهد .

☆ ☆ ☆

(كات استيفنز) ، مطرب القارَّتَيْن الأُوربيَّة والأمريكيَّة ، نال شهرةً عالميَّة رفيعة جداً من خلال الغناء والموسيقى ، الَّتي منحها وقته وجهده ، وكسب من خلالها أموالاً وثروة طائلة قُدِّرت بعشرات ملايين الدولارات . وهذه الثروة

الضخمة ـ مع الشهرة العالميّة ـ لم توصله إلى راحة البال والسّكينة والاستقرار ، فعاش ظروفاً نفسيّة قاسية ، وصراعاً مؤلماً كدّر صفو أيّامه ولياليه ، وراح يتخبّط في فراغ روحي عارم ، ينتقل من فكر إلى فكر ، ومن عقيدة إلى عقيدة ، إلى أن هداه الله عزّ وجل إلى الإسلام ، فاعتنقه بقناعة تامة ، وإيمان كامل عميق ، دون أن يكون لمسلم يد في ذلك ، فهجر (كات استيفنز) كل تلك الشهرة ، كما هجر الغناء والمعجبين والمعجبات ، واتّجه إلى الإسلام بكل حواسّه وجوارحه ، بعد أن سمّى نفسه : (يوسف إسلام) ، وفعلاً .. هزّ إسلام (كات استيفنز) كُلّ الأوساط ، وأسلم بإسلامه وحماسه للإسلام كثير من معجبيه .

يقول يوسف إسلام : ولدت في لندن قلب العالم الغربي ، ولدت في عصر التلفزيون وارتياد الفضاء ، ولدت في عصر وصلت فيه التكنولوجيا القمّة ، تعلّمت في مدرسة كاثوليكية ، وكانت الحياة حولي مادّيّة تنصب من كل أجهزة الإعلام . وكان لي هناك أمران لا يلتقيان :

الأمر الأوّل : هناك قوّة أكبر من هذه التّعاليم الدِّينيّة .

والأمر الثاني : هناك الحياة الصاخبة والغنى الفاحش ، حيث كانوا يعلموننا بأن الغنى هو الثروة الحقيقيّة ، والفقر هو الضياع الحقيقي ، ولذلك لا بدّ من اختيار طريق الغنى ، وسلوك مسلكه لأعيش حياة سعيدة ، وأفوز بنعيم الحياة ، ولهذا فقد بنيت فلسفة الحياة على أن لا علاقة لها بالدِّين ، وانتهجت هذه الفلسفة لأُدرك سعادة النّفس .

اشتريت (غيتاراً) وألّفت بعض الأغاني ولحنتها ، وانطلقت بين النّاس ، باسم : (كات استيفنز) ، وخلال فترة قصيرة ، حيث كنت في الثامنة عشر من عمري ، كان لي ثمانية شرائط مسجّلة ، وبدأت أُقدّم الكثير من العروض ، وأجمع الكثير من المال ، حيث وصلت إلى القمّة .

ولم يجد (كات استيفنز) السَّعادة في حياة الغنى ، ولا في الشهرة ، يقول (كات) : فطرقت باب البوذيَّة ، والفلسفة الصِّينيَّة فدرستها ، وظننت أن السَّعادة هي أن تتنبّأ بما سيحدث في الغد حتَّى تتجنَّب شروره ، فصرت قدريّاً ، وآمنت بالنجوم والتنبُّؤ بالطالع ، ولكنني وجدت ذلك كلُّه هراء . ثم انتقلت إلى الشيوعيَّة ، ظنّاً منّي أن الخير هو أن تقسّم ثروات هذا العالم على كلِّ النَّاس ، ولكنني شعرت أن الشيوعيَّة لاتتَّفق مع الفطرة ، فالعدل أن تحصل على عائد مجهودك ، ولا يعود إلى جيب شخص آخر .

ثم اتَّجهت إلى تعاطي العقاقير المهدِّئة لأقطع هذه السِّلسلة القاسية من التفكير والحيرة ، وبعد فترة ، بدأت أُدرك أنَّه ليست هنالك عقيدة تعطيني الإجابة ، وتوضِّح لي الحقيقة الَّتي أبحث عنها ، ويئست ، حيث أَني ما كنت أعرف عن الإسلام شيئاً ، فبقيت على معتقدي ومنهجي الأَوَّل الَّذي تعلمته من الكنيسة ، حيث عدت بفكري إليها ، بعد أن انسلخت منها إلى البوذيَّة الصِّينيَّة ، فالشُّيوعيَّة ، وعكفت من جديد على تأليف الموسيقى ، وشعرت أَنها هي ديني ، ولا دين لي سواها ، فأتقنت عملي إتقاناً كاملاً ، وفي هذه المرحلة كوَّنت اسمي في عالم (الرُّوك) ، ولكن بيني وبين نفسي كنت أشعر شعوراً آخر ، وهو نفس الشُّعور الَّذي انتابني من قبل .

وفي عام ١٩٧٥ م حدثت المعجزة بعد أن قدَّم لي شقيقي الأكبر نسخة من (القرآن الكريم) هَديَّةً ، ومن أوَّل وهلة شعرت أَنَّ القرآن يبدأ (باسم الله) ، وليس باسم غير الله ، وعبارة : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة ١] كانت مؤثِّرة في نفسي ، ثم تستمر فاتحة الكتاب : ﴿ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة ٢] ، كل الحمد لله خالق العالمين ، ورب المخلوقات .

وحتَّى ذلك الوقت ، كانت فكرتي ضئيلة عن الإله ، حيث كانوا يقولون لي أن اللهَ الواحد مقسَّم إلى ثلاثة ... كيف ؟ لاأدري !! أمَّا القرآن الكريم فقد بدأ

بعبارة الله الواحد رب العالمين جميعاً ، مؤكِّداً وحدانيّة الخالق ، وليس له شريك يقتسم معه القوَّة .

القرآن هو الَّذي دعاني إلى الإسلام فأجبتُ دعوته ، أما الكنيسة الَّتي حطَّمتني وجلبت لي التَّعاسة والعناء ، هي الَّتي أرسلتني إلى هذا القرآن عندما عجزت عن الإجابة على تساؤلات النَّفس والرُّوح .

ولقد لاحظت في القرآن شيئاً غريباً ، فهو لا يشبه باقي الكتب ، ولا يتكوَّن من مقاطع وأوصاف تتوفَّر في الكتب الدِّينية الَّتي قرأتها ، **ولم يكن على غلاف القرآن الكريم اسم مؤلِّف** ، ولهذا أيقنتُ مفهوم الوحي الَّذي أوحي إلى هذا النَّبيِّ المرسل بهذا القرآن من الله تعالى .

لقد تبيَّن الفارق ، حيث قرأت الإنجيل الَّذي كُتِبَ على يد مؤلِّفين مختلفين ، وحاولت أن أبحث عن أخطاء في القرآن الكريم ، ولكني لم أجد ، كان كلُّه منسجماً مع فكرة الوحدانيَّة الخالصة ، بدأت أُومن ما هو الإسلام ، الإسلام رسالة من الله إلى البشر .

ولقد أجاب القرآن على كلِّ تساؤلاتي ، وبذلك شعرت بالسَّعادة ، سعادة العثور على الحقيقة ، ووجدت في القرآن كيف أن هذه السعادة هي الخالدة : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ ٱلغيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدْ ٱسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ ٱنْفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة ٢٥٦] .

أمَّا السُّؤال الخالد على ألسِنَةِ البشر : من أنا ؟ لماذا أنا هنا ؟ وإلى أين ذاهب ؟ وجواب ذلك في القرآن ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة ١٥٦] ، لو قرأتها لتجلت لهم الحقيقة .

وبعد قراءة القرآن الكريم كله خلال عام كامل ، بدأت أُطبِّق الأفكار الَّتي قرأتها فيه ، شعرت في ذلك الوقت أنني المسلم الوحيد في العالم ، ثم فكرت كيف

أكون مسلماً حقيقياً ، فـاتَّجهت إلى مسجـد لنـدن ، وأشهرت إسلامي ، وقلت : (أشهـد أن لاإلـه إلاَّ الله وأن محمداً عبـده ورسولـه) ، حينهـا أيقنت أن الإسلام الَّذي اعتنقته رسالة ثقيلة ، وليس عملاً سهلاً ينتهي في النطق بالشَّهادتَيْن .

لقـد ولـدت من جـديــد ، وعرفت إلى أين أسير مـع إخـوتي من عبـاد الله المسلمين ، كانت أوّل مرّة أقـابل فيهـا إخـوتي المسلمين ، ولم أقـابـل أحـداً منهم من قبل ، لعلّني لو قـابلت مسلمـاً يحـاول أن يـدعوني للإسلام لرفضت دعـوتـه بسبب أحوال المسلمين المزرية ، وما تشوهه أجهزة إعلامنا في الغرب .

لقـد اتجهت لـلإسـلام من أفضـل مصـادره ، وهـو القرآن الكريم ، ثم بـدأت أدرس سيرة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ، وكيف أنّه بسلوكه وسُنّتـه علّم المسلمين والإسلام ، فأدركت الثروة الهائلة في حيـاة الرّسول ﷺ وسُنّتـه . كنت أُصلي كما علّمنا أن نسلك ، وإذا جـاء وقت الصّلاة أهجر الحيـاة الـدُّنيـا ، وألتقي بـالله في الصّلاة لأكون قريباً من الحق سبحانه وتعالى .

لقد نسيت الموسيقى ، لأنها تشغل عن ذكر الله ، وهذا خطر عظيم .

أمّـا المـلايين الّتي كسبتهـا من عملي السّـابـق ، فـوهبتهـا كلهـا للـدعـوة الإسلامية[1] .

يا شباب العرب .. لو عرفتم تمجيد الإسلام للعروبة ، وتقديسـه لهـا عنـدمـا اقترن اسمه باسمها .. **لعشقتم الإسلام ولكنتم من دعاته ..**

شـابٌّ عربيٌّ سوريٌّ ، ذهب لـلاطـلاع ضمن اختصـاصـه لمـدة ستـة أشهر إلى

---

(١) (الرّابطة) : العدد ٢٥١ ، السّنة ٢٤ ، جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ / شبـاط ١٩٨٦ م ، ص ٥٢ و ٥٣ (بتصرُّف) ، وليوسف إسلام كتـاب فيـه قصـة إسلامـه ، مطبـوع بـاللُّغتين العربيّـة والإنكليزيّة ، عنوانه : قصة إسلامي .

فرنسة ، عجز عن إيجاد غرفة مفروشة قريبة للمعهد الَّذي يدرس فيه ، مما اضطره للسَّكن في ضاحية من ضواحي باريس تبعد أكثر من ساعة عن المعهد ..

تعرف على بعض الطَّلبة العرب ، وشكا ضياع أكثر من ساعتين يومياً في ذهابه وإيابه ، فسمع ذلك طالبٌ من جنوب شرقي آسية ، يدرس في إحدى الجامعات في باريس ، فتقدَّم منه ، وأقسم عليه إلاَّ أن يذهب معه إلى غرفته ، فذهب إلى غرفة هذا الطالب ، بعد أن أحضر حاجياته ، وبعد أن قَدَّم له مفتاح الغرفة ودعه ، وقال له في فترة بقائك هنا في باريس ، سأنام أنا عند زميل لي عنده غرفة بسريرين .

دهش الطَّالب العربي السُّوري من معاملة هذا الطالب ، ومن خدمته له في فترة بقائه في باريس ، وشعر أنَّه يبذل له ، ويتواضع له .. مما أثار تساؤلاته : لماذا كل هذا ؟ من أين يعرفني ؟ ولماذا كل هذه الخدمات ؟ فعرض عليه مبلغاً مقابل شغله الغرفة فرفض بإلحاح ..

وعند انتهاء فترة الاطلاع ، وبقيت أيَّام لموعد السَّفر ، تقدم الطَّالب الآسيوي من الطالب العربي السُّوري وقال له : عندي طلب . قال الطَّالب العربي السُّوري : خير .. تفضل ، قال : أنا فلبِّيني ، وأُريد أُجرة هذه الغرفة عن الأشهر الماضية ، قال الطَّالب العربي السُّوري : وكم تريد ، إنَّني حاضر ؟ قال الطالب الفلبِّيني : لا أريد مالاً .. فقال الطالب العربي السُّوري : هل أعجبك شيء من ثيابي أو أدواتي .. اختر مايطيب لك ..

قال الفلبِّيني : أنا مسلم ، ولا أعرف كتابة اسمي باللُّغة العربيَّة لغة قرآني وإسلامي .. إن أُجرة الغرفة أن تعلِّمني كيف أكتب اسمي (عبد المطلب) بالأحرف العربيَّة .. فدهش الطالب العربي السوري من هذا الإنسان ، وعلَّمه كتابة اسمه باللُّغة العربيَّةِ ، لغة القرآن ... فشعر الفلبِّيني المسلم كأنه مَلَك المشرق

والمغرب ، وقال هذا الطّالب العربي السّوري عندها : مسكينة أُمّتنا . إنّها تملك طاقة روحيّة ، تستطيع من خلالها أن تقود ثمان مئة مليون مسلم ، تجعلهم مع قضاياها العادلة بروحهم ودمهم ، وتجعل منهم صوتها الدّاعي أينما حلّوا .

ومسكين شبابنا العربي الذي لا يعرف قدر وعظمة محمّد بن عبد الله ﷺ .. فلبّيني ما زال قلبه معلّقاً بمكّة المكرّمة ، فروح عبد المطلب تعشق صاحب الرّسالة ﷺ ، وما زال عقل عبد المطلب ممتلئاً بمبادئ الإسلام ، وجوارح عبد المطلب تأمل أن تعرف كيف تكتب اسم صاحبها بأحرف اللغة التي دوّن بها القرآن العظيم . كل ذلك على الرّغم من التبشير المستميت في رحاب الفلبّين .

قال الطّالب العربي السوري : وأنا أودّع عبد المطلب ، شعرت أنّني أعرفه منذ مئات السنين .. وشعرت أنّ روحي مرتبطة بروحه ، وفكري له علاقة وثيقة بفكره ، وعقيدتي جزء من عقيدته .. فودعته وفي العين دمعة ، وفي القلب حسرة . دمعة تقدير وحب وإجلال لمحمّد بن عبد الله ، الذي أحيا الأمّة العربيّة ، وحسرة على أُمّتي الّتي زهدت به ، فلو كان عند غيرها من الأُمم لفعلت بمبادئه الأعاجيب .

☆ ☆ ☆

فيا شباب العرب .. أراكم بأسماء عمر وخالد وطارق .. وأنتم حرب على عدل عمر ، وشجاعة خالد ، وطموح طارق .

يا شباب العرب .. أراكم بأسماء سعد وعمرو وصلاح الدين ، وأنتم لا تعترفون على فكر سعد ، ولا على فتوح عمرو ، ولا على عزيمة صلاح الدين .

يا شباب العرب .. أراكم تقولون أمجاد ، تراث ، عروبة ، وأنتم تعرفون عن أمجاد غيركم ، أكثر مما تعرفون عن أمجاد أُمتكم ، وتعلمون من تراث المستشرقين

والمبشرين ، أكثر مما تعرفون عن تراثكم ، وتتعلّقون بأُمم أُخرى روحيّاً ، أكثر مما تتعلقون بعروبتكم المؤمنة .

يا شباب العرب .. ضياعكم ، ضياع لأُمَّتنا ..

وضياعكم ، ضياع لذاتيتنا ..

فإلى متى ترددون شبهات على دينكم دون تمحيص ؟

إلى متى نمجِّد آراء مستشرقين أو ملحدين ـ صفراً أو حمراً ـ ونحن نملك من الفكر ما يحقِّق سعادتنا ؟

هذه صيحة .. أرجو أن تجد قلوباً حيَّة تعيها ، وأُرجو أن لا تكون صرخة في واد .

يا شباب العرب .. أما عاد عدل عمر يعجبكم حتى تفتِّشوا عن عدل غيره ؟؟

يا شباب العرب .. أما عادت طمأنينة عمر بن عبد العزيز ورفاهية دولته تعجبكم ، حتى تفتشوا عن طمأنينة وعدالة اجتماعية غيره ؟

يا شباب العرب .. أما عاد علم الرَّشيد والمأمون يعجبكم ، حتى تفتشوا عن حافز للعلم عند غيرهما ؟

يا شباب العرب .. لا تقولوا نحن عرب ونعتز بعروبتنا ، وأنتم حرب على فكر وروح العروبة .

يا شباب العرب .. نساء النَّبيِّ ﷺ أُمَّهات المؤمنين المسلمين ، فالنَّبيُّ إذن أَبوهم ، ومن يعق أباه لن يرى التَّوفيق في حياته ، فكونوا بررة بوالدكم وأَبيكم ، والدِ فكركم الصحيح وأبي نهجكم القويم .

يا شباب العرب .. عروبتكم بالإسلام تقدَّست ، وبالقرآن لغتكم تشرَّفت ،

فإلى متى تهجرون إسلامكم وقرآنكم ؟

يا شباب العرب .. بالإسلام ، والإسلام وحده ، اشتاقت القلوب إلى بلادكم ، وبالإسلام ، والإسلام وحده ، يتعاطف المسلم الصِّيني والأندونيسي والباكستاني والأفغاني والنِّيجيري والسّنغالي مع قضاياكم ..

فلا تضيعوا روح العروبة .

فتظلموا أنفسكم وأمتكم .. وتخونوا عروبتكم وإسلامكم ..

اللّهم إنّي بلغت .. اللّهم فاشهد .

☆ ☆ ☆

المحتوى

الموضوع	الصفحة
☆ تصدير الطّبعة الجديدة	٥
☆ تصدير	١١
☆ علم وإيمان	١٩
المادّيون أشد الناس اعتماداً على الغيبيّات	٢٨
مستقبل الماديّة	٢٩
الفراغ الروحي بث اليأس والقلق في أُوربة	٣٠
الضمير بدل الإيمان يكفينا !	٣١
ثمرات الإيمان في عصر المادّة	٣٣
أمثلة حيّة	٣٤
فضل الإيمان على المجتمع	٣٦
☆ الدّين أفيون الشّعوب	٣٩
☆ إسلام وجاهليّة	٤٥
☆ عقوبة موسومة بالقسوة	٥٥
حَدّ السّرقة	٥٦
حَدّ الزّنا	٦١
☆ انتصارٌ واهنٌ	٦٦
☆ سُنّة وشيعة	٧٣
☆ وماذا عن هدي الحج ؟	٧٨
الشّريعة لا ذنب لها	٧٩
خلاصة الأمر	٨٣

الموضوع	الصفحة
☆ ماذا عن الطُّوفان ؟!	٨٤
تاريخ بلاد الرَّافدين القديم	٨٦
الطُّوفان في القرآن الكريم	٨٩
نظرة مَنَاخيَّة وتضاريسيَّة	٩١
الأَدلة العقليَّة على حدوث الطُّوفان	٩٣
☆ فآمنوا بالله ورسوله النَّبيِّ الأُمِّي	٩٧
الرِّواية الأُولى	١٠٠
الرِّواية الثَّانية	١٠٠
الرِّواية الثَّالثة	١٠١
رواية أُخرى	١٠٢
ماذا في صحيح مسلم ؟.	١٠٨
وبعد ...	١١٢
☆ خاتمة (يا شباب العرب)	١١٨

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٩٨٦/٧/٢٠م

عدد النسخ (٢٠٠٠)